الباب الثالث

الإيمان في حياة المجتمع

- الإيمان والأخلاق .
- البذل والتضحية .
- القوَّة .
- الرحمة .
- الإيمان والإنتاج .
- الإيمان والإصلاح .

obeikandl.com

obeikandl.com

الإيمان فى حياة المجتمع

الحدود بين الأفراد والمجتمع متداخلة متشابكة ، وليس من المستطاع بسهولة أن يُقال : هذا أمر يؤثر فى الفرد ، وهذا أمر يُؤثر فى المجتمع ، فما المجتمع فى واقع أمره إلا أفراد ربطت بينهم روابط مشتركة ... وكل جهد يُبذل لتكوين الفرد الصالح ، هو عمل أصيل لتكوين المجتمع الصالح .

ومثل المجتمع البَشرى كمثل البنيان المرصوص ، ومثل الأفراد فيه كمثل اللَّبنات للبُنيان ، فإذا كانت اللَّبنات قوية متينة ، وكانت المادة التى تربط بينها قوية الربط وإحكام الالتحام والتماسك بينها . قام منها بناء قوى مكين . فالعمل الأول فى البناء يجب أن يتجه إلى اللَّبنات وإعدادها .

وإذا نظرنا إلى ما تقدم ـ من أثر الإيمان فى حياة الفرد ـ نجد أن الفرد الذى يتمتع بسكينة النفس ، وأمن الروح ، ويتذوق نعمة الرضا ، ويستروح نسمات الأمل ، ويحيا فى ظلال الحب الفسيح ، ويحس بالقوة ، ويشعر بالكرامة ، إنما هو إنسان اجتماعى راق ، ولبنة صالحة لأن يقوم عليها بناء اجتماعى سليم .

والمجتمع الذى تشيع بين أفراده السكينة والأمن ، والرضا والأمل ، والحب والشعور بالكرامة ، مجتمع يشق طريقه إلى السعادة والرقى والاستقرار .

ألا و إن أخص ما يميز المجتمع الراقى ، المجتمع الفاضل ، المجتمع السعيد هو التماسك والترابط . المجتمع الفاضل هو الذى يتعارف أبناؤه فلا يتناكرون . ويتحابون فلا يتباغضون ، ويتعاونون فلا يتخاذلون . ويتعاملون فيما بينهم بالعدل والرحمة ، فلا يبغى بعضهم على بعض ، ولا يقسو بعضهم على بعض ، فلا ينسى الواجد المحروم ، ولا يهمل القادر العاجز ، ولا يأكل الكبير الصغير كالسمك ، ولا يعدو القوى على الضعيف كسكان الغابة .

وشر ما يصيب المجتمع هو التفكك وضعف الروابط بين أبنائه ، وذلك بغلبة

الأنانية على أنفسهم ، فيذكر المرء نفسه وينسى أخاه ، ويقول كل واحد : نفسى نفسى ، ولا يُبالى أن يجعل من الناس قرابين تُقدَّم لإلَه أطماعه وشهواته .

شر ما يُصيب المجتمع ، أن يقول كل فرد فيه : لى ، ولا يقول : علىَّ ... أن تتضخم (أنا) فى نفسه على حساب غيره . فينظر إلى نفسه نظرة استعلاء واستكبار ، وإلى الناس نظرة الازدراء والاحتقار .

ومثل ذلك فى الشر أن يفقد الإنسان إحساسه بذاته ، وشعوره بكرامته ، وبما وهبه الله من قوة ، وما آتاه من نعمة ، وحينئذ تموت فى نفسه الحوافز الكريمة ، والبواعث الطيبة ، ولا ينمو فى جوانحه إلا الشعور بالضعف والهوان والضياع والفراغ ، وهى مشاعر قتَّالة للفرد ، وبالتالى هدَّامة لصرح المجتمع .

وإذن فلا بد من حد وسط يقف عنده الفرد ، يحس بذاته وكرامته إحساساً لا ينال من ذات غيره وكرامته وحقه باعتباره إنساناً ... وبذلك يعمل أبناء المجتمع معاً ، ويسيرون إلى الهدف المشترك جنباً إلى جنب ، متعاونين على البر والتقوى ، متواصين بالحق والصبر .

والمجتمع فى حاجة إلى ضوابط تحكم علاقاته ومعاملاته بعضه لبعض ، فلا تغطى الغريزة على العقل ، ولا القوة على الحق ، ولا الهوى على الواجب ، ولا المنفعة الخاصة على المصلحة العامة ، وهذه الضوابط لا تؤدى مهمتها إن لم تكن ضوابط أخلاقية ، مبعثها النفس ، ومصدرها الضمير .

ولهذا كان كل بناء أو إصلاح أو تغيير اجتماعى لا يقوم على إصلاح الأنفس وإيقاظ الضمائر ، وتربية الأخلاق ، أشبه ببناء على كثبان من الرمال ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ [الرعد : ١١] ..

وسنرى فيما يلى أثر الإيمان الحى فى المجتمع المؤمن ، وكيف يسمو به إلى مستوى من الرقى الإنسانى ، تندق دونه أعناق الماديين .

* * *

الإيمان والأخلاق

«**أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خُلُقًا**» [حديث شريف رواه الترمذى]

● **الحيوان تكفيه غريزته :**

إذا تأملنا فى عالَم الحيوان وجدنا غريزته تكفيه فى هدايته إلى تنظيم حياته وتدبير أمره ، منفرداً ومجتمعاً ، كما نشاهد ذلك فى جماعة النمل ، وكيف تعمل فى تعاون واتساق لجمع أقواتها ، وادخارها فى جحورها إلى فصل الشتاء، حيث لا تستطيع الغدو فى طلب الرزق ، وأوضح من ذلك ما نراه فى مملكة النحل التى تقوم دولتها على ملكة وعاملات وذكور ـ يقوم كل منها بدوره فى الجماعة فى دقة وتعاون واتساق . وذلك آية من آيات الله للمتفكرين فى هذا النظام الدقيق الذى هداها الله إليه أو أوحى إليه به ـ وفق تعبير القرآن ـ ﴿ **وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ [النحل : ٦٨-٦٩] . .

ذلك شأن الغريزة فى الحيوان .

● **غرائز الإنسان متضاربة :**

أما الإنسان فغرائزه متعددة متنوعة ، معقدة غير سهلة ، مركبة غير بسيطة ، فمنها الفردى الذى يدفع إلى الأنانية والأثرة ، ومنها الاجتماعى الذى يُغرى بالتعاون والإيثار ، ومنها ما يهبط به إلى حضيض المادة ، ومنها ما يسمو به إلى أُفق الروح ، وذلك أن الإنسان نفسه مخلوق مُركَّب ، فى كيانه جزء أرضى وجزء سماوى ، هو جسد وروح ، شهوة وعقل ، وإنسان وحيوان ، وملاك وشيطان ، ولذا عرَّفه بعض الفلاسفة ـ نظراً لاتصاله بعالَم الروح وعالَم المادة ـ فقال : (الإنسان مواطن فى عالمين) .

ويقول الفيلسوف البريطانى المعاصر برتراند رسل : (الإنسان أكثر تعقيداً فى نزعاته ورغباته من أى حيوان آخر ، وتنشأ الصعوبات التى يواجهها من هذا التعقيد ، فهو ليس اجتماعياً تماماً مثل النمل والنحل ، ولا هو انفرادى تماماً مثل الأسود والنمور ، إنه حيوان شبه اجتماعى ، وبعض نزعاته ورغباته اجتماعى ، وبعضها انفرادى ، ويبدو الجانب الاجتماعى فى طبيعته من أن الحبس الانفرادى يُعتبر عقوبة بالغة الشدة ، ويبدو الجانب الآخر فى حبه للاستقلال بأموره الخاصة ، وعدم استعداده للتحدث فيها إلى الغرباء . ولأننا لسنا اجتماعيين تماماً فنحن فى حاجة إلى أخلاق ، لتُوحى لنا بالأهداف ، وإلى قواعد أخلاقية لتفرض علينا قواعد التصرفات ، والنحل ـ كما يبدو ـ ليس فى حاجة إلى شىء من هذا ، فهو يتصرف بما تُمليه عليه مصلحة الجماعة) [1].

تُرى ما الذى يضع للإنسان القواعد الأخلاقية السليمة الصحيحة ؟

وما الذى يُحدِّد للإنسان سلوكه المستقيم ؟ ويرسم له طريقاً موصلاً إلى غاية لا عِوَج فيه ؟ ويدفعه إلى السير فى هذا الطريق القويم ؟

هل هو القانون ؟

أم هى الفلسفة الأخلاقية ؟

أم هو الدين ؟

سنحاول أن نُلقى بعض الأشعة الكاشفة على كل من هذه الثلاثة :

● **القانون وحده لا يكفى لضبط السلوك الإنسانى :**

أما القانون فهو أمر لا بد منه لتنظيم شؤون الجماعة وتحديد علاقتها ، ولكنه لا يصلح وحده ضابطاً لسلوك البشر ، لأن سلطانه على الظاهر لا على الباطن ، ودائرته فى العلاقات العامة لا فى الشؤون الخاصة . ومهمته أن يعاقب المسىء دون أن يستطيع مكافأة المحسن ، على أن التحايل على القانون ميسور ، وتطويع

---

(١) من كتاب « المجتمع البشرى فى الأخلاق والسياسة » لبرتراند رسل ص ١٠ .

نصوصها للأهواء مُستطاع ، والهرب من عقوباتها ليس بالشيء العسير ، وإذا كان القانون عاجزاً عن أن يكون زاجراً عن الشر ورادعاً عن الجريمة والفساد ، فإنه لأعجز وأعجز عن أن يكون دافعاً إلى الخير أو باعثاً على حق أو حافزاً على عمل صالح .

ومهما افترضنا فى القانون الإنسانى من مطابقة العدل والحق ، فإنه على كل حال ليس له قوة ذاتية وإنما قوته فى (الحكومة) القائمة على رعايته وتنفيذه .

ويقول السيد جمال الدين الأفغانى فى هذه الحكومة ، و أنها لا تكفى فى إلزام النفس حدود العدل[1] : «ليس بخاف أن قوة الحكومة إنما تأتى على كف العدوان الظاهر ، ورفع الظلم البَيِّن ، أما الاختلاس والزور المموَّه والباطل المزيَّن والفساد الملوَّن بصبغ من الصلاح ، ونحو ذلك مما يرتكبه أرباب الشهوات ، فمن أين للحكومة أن تستطيع دفعه ؟ وأنَّى يكون لها الاطلاع على خفيات الحيل ، وكامنات الدسائس ومطويات الخيانة ومستورات الغدر حتى تقوم بدفع ضرره ؟ على أن الحاكم وأعوانه قد يكونون ـ بل كثيراً ما كانوا ويكونون ـ ممن تملكهم الشهوات ، فأى وازع على أيدى أصحاب السلطة، ويمنعهم من مطاوعة شهواتهم المتسلطة على عقولهم ؟ وأى غوث ينقذ ضعفاء الرعايا وذوى المسكنة منهم من شر أولئك المتسلطين وحرصهم» ؟

ويقول أستاذنا الدكتور محمد عبد الله دراز فى كتابه (الدين) :

«لا قيام للحياة فى الجماعة إلا بالتعاون بين أعضائها ، وهذا التعاون إنما يتم بقانون يُنظِّم علاقاته ، ويُحدِّد حقوقه وواجباته . وهذا القانون لا غنى له عن سلطان نازع وازع ، يكفل مهابته فى النفوس ، ويمنع انتهاك حرماته» .

ونقرر أنه ليس على وجه الأرض قوة تكافئ قوة التدين ، أو تدانيها فى كفالة احترام القانون وضمان تماسك المجتمع ، واستقرار نظامه ، والتئام أسباب الراحة والطمأنينة فيه .

---

(١) رسالة الرد على الدهريين ، ص ٧٢ .

« والسر فى ذلك أن الإنسان يمتاز عن سائر الحيوانات الحية بأن حركاته وتصرفاته الاختيارية يتولى قيادتها شيء لا يقع عليه سمعه ولا بصره ، ولا يوضع فى يده ولا فى عنقه . ولا يجرى فى دمه ولا فى عضلاته ولا فى أعصابه ، وإنما هو معنى إنسانى روحانى اسمه الفكرة والعقيدة ، ولقد ضل قوم قلبوا هذا الوضع ، وحسبوا أن الفكر والضمير لا يؤثران فى الحياة المادية والاقتصادية بل يتأثران بها (يقصد الماركسيين) .

« أجل إن الإنسان يُساق من باطنه لا من ظاهره ، وليست قوانين الجماعات ولا سلطان الحكومات بكافيين وحدهما لإقامة مدينة فاضلة تُحترم فيها الحقوق وتُؤدَى الواجبات على وجهها الكامل ، فإن الذى يُؤدِّى واجبه رهبة من السوط أو السجن أو العقوبة المالية . لا يلبث أن يهمله متى اطمأن إلى أنه سيفلت من طائلة القانون .

« ومن الخطأ البَيِّن أن نظن أن فى نشر العلوم والثقافات وحدها ضماناً للسلام والرخاء وعوضاً عن التربية والتهذيب الدينى والخُلُقى ، ذلك لأن العلم سلاح ذو حدين يصلح للهدم والتدمير ، كما يصلح للبناء والتعمير ، ولا بد فى حسن استخدامه من رقيب أخلاقى يوجهه لخير الإنسانية وعمارة الأرض لا إلى الشر والفساد ، ذلكم الرقيب هو (العقيدة والإيمان) » [1] . . .

● **الفلسفة الأخلاقية لا تُغنى :**

وأما الفلسفة الأخلاقية فلا يمكنها توجيه الجماهير الغفيرة من الناس ، إنها لا تستطيع إلا توجيه أفراد معدودين، وبتأثير محدود لا ينفذ إلى الأعماق كما ينفذ الدين .

ثم أى فلسفة أخلاقية تلك التى يتبعها الناس ، وكل فيلسوف له مذهب ، وكل مذهب له مقياس ؟ أهى فلسفة المنفعة التى نادى بها (وليم جيمس) وغيره؟

---

(١) من كتاب « الدين » للمرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز .

obeikandi.com

أم فلسفة اللّذة التى نادى بها (أريستيب) و(أبيقور) ؟ أم فلسفة القوة التى نادى بها (نيتشه) ؟ أم فلسفة الواجب التى دعا إليها (كانت) ؟

وما الجزاء الذى يناله المرء على استمساكه بفضائل أخلاقية معيَّنة ؟ أهوجزاء يُقنع العقل ويُرضى النفس ، أم هو سراب بِقيعَةٍ يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ؟

ما جزاء الجندى المجهول الذى يعمل لخدمة المجموع دون أن يراه أحد أو يشعر به أو يكافئه ؟

ما هو جزاء المضحى فى سبيل أُمته وأُسرته ، يقاتل دفاعاً فيُقتل ظلماً فيموت؟ إن راحة الضمير هنا ـ التى يتغنى بها الأخلاقيون ـ ليس لها وجود .

ومن جانب آخر، ما جزاء من عاش طول عمره يظلم ويطغى ، ويعب من الشهوات الحرام دون أن يشعر بتأنيب الضمير ، لأن ضميره قد مات ؟ إنه لا يحل هذه العُقدة إلا الإيمان ، إلا الدين .. الذى يقول : ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ** ﴾ [الزلزلة : ٧-٨] .. ﴿ **وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ** ﴾ [محمد :٤-٦] .. ﴿ **يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ مَا سَعَى * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى * فَأَمَّا مَن طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى** ﴾ [النازعات : ٣٥-٤١]

● **الأخلاق لا الفلسفة الأخلاقية :**

ورفضنا للفلسفة الأخلاقية ليس رفضاً للأخلاق نفسها ، فالأخلاق ملاك الفرد الفاضل ، وقوام المجتمع الراقى ، يبقى ويستقر ما بقيت ، ويذهب ويتلاشى إن ذهبت ، بل لا حياة بغيرها :

وإذا أُصيب القومُ فى أخلاقهم فأقمْ عليهم مأتماً وعويلا

وللأخلاق فى نظر الدين عامة ، والإسلام خاصة محل رفيع ، ومكان فسيح ،

والقرآن لم يُثْنِ على خير الرسل محمد عليه السلام بأكثر من أن قال : ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾ [القلم : ٤] .. والنبى يلخص رسالته فلا يزيد أن يقول : (إنما بعثتُ لأُتمم مكارم الأخلاق) (١) .

ولا عجب أن رأينا من محققى علماء الإسلام رجلاً مثل ابن القيم يقول : (الدين هو الخُلُق ، فمن زاد عليك فى الخُلُق زاد عليك فى الدين)(٢) .

وهذا مصداق ما جاء فى الحديث النبوى : « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خُلُقاً » (٣) . وقال ﷺ : « البر حسن الخُلُق » (٤) ، « ما من شىء أثقل فى ميزان المؤمن يوم القيامة من خُلُقٍ حسن »(٥) .

ذلك هو شأن الأخلاق فى الدين وفى المجتمع .. هى فى الدين ركن ركين وهى فى المجتمع أساس مكين .

● **لا أخلاق من غير دين :**

غير أن الدين لا يقف عند حد الدعوة إلى مكارم الأخلاق وتمجيدها . إنه هو الذى يُرسى قواعدها ، ويُحدِّد معالمها ، ويضبط مقاييسها الكلية ، ويضع الأمثلة للكثير من جزئيات السلوك ، ثم يُغرى بالاستقامة ، ويُحذِّر من الانحراف ، ويضع الأجزية مثوبة وعقوبة على كلا السلوكين نصب العين .

وقد قال الفيلسوف الألمانى (فيخته) : (الأخلاق من غير دين عبث) . وقال الزعيم الهندى غاندى : (إن الدين ومكارم الأخلاق هما شىء واحد لا يقبلان الانفصال ، ولا يفترقان بعضهما عن بعض ، فهما وحدة لا تتجزأ ، إن الدين كالروح للأخلاق ـ والأخلاق كالجو للروح ، وبعبارة أُخرى : إن الدين يُغذِّى الأخلاق ويُنمِّيها ويُنعشها ، كما أن الماء يُغذِّى الزرع ويُنميه) .

---

(١) رواه ابن سعد والبخارى فى الأدب المفرد ، والحاكم فى المستدرك ، والبيهقى فى الشعب عن أبى هريرة ، ورمز له السيوطى بعلامة الصحة .

(٢) مدارج السالكين ، جـ ٢ ص ٣٠٧ ط السنة المحمدية .

(٣) رواه الترمذى ، وقال : حسن صحيح ـ من حديث أبى هريرة .

(٤) رواه مسلم من حديث النوّاس بن سمعان .

(٥) رواه الترمذى وقال : حسن صحيح ـ من حديث أبى الدرداء .

ومنذ سنوات اطلع العالَم على تقرير القاضى البريطانى (ديننج) عن فضائح الوزير السابق البريطانى جون بروفيمو وعشيقته كريستين كيلّر ، وقد عكف ديننج على دراسة هذه القضية فى شقته المتواضعة بلندن ثلاثة شهور لم يكن يتمتع أثناءها إلا بعطلته الأسبوعية ، يقضّيها فى منزله فى الريف البريطانى حيث تُقيم زوجته . وقد قابَلَ خلال التحقيق ١٨٠ رجلاً وامرأة ، واجتمع بالصحفيين ، وأعضاء البرلمان وغيرهم ، وقد كتب تقريره فى ٨٥٠ ألف كلمة ،وأخيراً تكلم هذا القاضى بنزاهة ، وصراحة ، معقباً على هذه القضية الخطيرة فقال :

بدون الدين لا يمكن أن تكون هناك أخلاق ، وبدون أخلاق لا يمكن أن يكون هناك قانون !

الدين هو المصدر الفذ المعصوم الذى يُعرَف منه حسن الأخلاق من قبيحها ، والدين هو الذى يربط الإنسان بمثَل أعلى يرنو إليه ، ويعمل له ، والدين هو الذى يحد من أنانية الفرد ، ويكفكف من طغيان غرائزه ، وسيطرة عاداته ، ويُخضعها لأهدافه ومُثُله ، ويُربّى فيه الضمير الحى الذى على أساسه يرتفع صَرح الأخلاق .

● **الإيمان والمثل الأعلى :**

ما هَمُّ الإنسان الذى لا دين له ، ولا عقيدة ؟ وما غايته من وجوده ؟ وما رسالته فى الحياة ؟

أغايته رضوان الله ؟ إنه لا يؤمن به ولا يرجو له وقاراً .

أغايته الخلود والنعيم فى الحياة الأبدية ؟ إنه لا يؤمن بها ، ولا يكفر فيها .

إنه لا هَمَّ له ولا غاية ولا رسالة إلا أن يدور فى فلك نفسه ، يتبع هواها ويحقق رغائبها العاجلة ، ويسير خلف دوافعها أياً كانت و وفقاً لمزاجه وتكوينه الخاص .فإن كان مزاجه من النوع الهادئ المسالم عاش فى الدنيا غافلاً عن نفسه وعما حوله ، حياً كميت ، وموجوداً كمفقود ، لا يحس أحد بحياته ولا يترك فراغاً بعد موته .

فذاك الذى إن عاش لم يُنتفع به وإن مات لا تبكى عليه أقاربه

وإن كان يغلب على نفسه الجانب (البهيمى) جرى وراء الشهوات واللَّذات، يقتحم إلى بلوغها كل حرمة ، ويسلك من أجلها كل طريق ، لا حياء يردعه ، ولا ضمير يقمعه ، ولا عقل يمنعه ، يقول ما قال أبو نوَّاس :

إنما الدنيا طعام وشراب ونُدام (١)

فإذا فاتك هذا فعلى الدنيا السلام

وإن كان مزاجه من النوع (العصبى) جعل همه العلو فى الأرض ، والاستكبار على الناس ، وإظهار السلطة والتحكم فى الرقاب ، والفخر بلسانه ، والاختيال بفعاله ، ولم يهمه فى سبيل ذلك أن يبنى قصراً من جماجم البشر ، وأن يُزخرفه بدماء الأبرياء ، شعاره ما قاله الشاعر الجاهلى :

لنا الدنيا ومن أمسى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا

بغاة ظالمين وما ظُلمنا ولكنا سنبدأ ظالمينا

إذا بلغ الرضيع لنا فِطاما تخر له الجبابر ساجدينا

وإن كان يغلب عليه الجانب (الشيطانى) دبَّر المكايد . وفرَّق بين الأحبة ، ووضع الألغام ليُدمر ، وسمَّم الآبار ليقتل ، وعكَّر المياه ليصطاد ، وزيَّن الإثم ، وأغرى بالفاحشة ، وأوقع العداوة والبغضاء بين الناس ، وقال مع الشاعر :

إذا أنت لم تنفع فضُرَّ فإنما يُرجى الفتى كيما يضر وينفعا

وكان ممن حق عليهم قول الله : ﴿ **وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ** ﴾ [الرعد :٢٥] ..

وهكذا يدور كل واحد من هؤلاء حيث تدور نفسه ، وينقاد لأمر هواه ، والهوى يُعمى ويُصم ، والهوى إلَه معبود : ﴿ **وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ** ﴾ [القصص : ٥٠] ..

---

(١) الندام : المنادمة والمجالسة على شرب الخمر .

أما المؤمن فإنه يعيش لرسالة كبيرة ، ويعمل لهدف رفيع ، ويحيا فى ظل مُثُل عُليا ، يعيش لها ويموت عليها هى : القُربى إلى الله ، والتخلق بأخلاقه ، والسعى فى مرضاته . وفى سبيل مُثله يكبح جماح نفسه ، ويقمع طغيان هواه ، ويضغط على غرائزه وشهواته ، احتساباً لله وإيثاراً لما عنده ، وابتغاء مرضاته ، وإيماناً بحسن الثواب لديه ، قد وضع نصب عينيه قول ربه جل شأنه : ﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ * قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ** ﴾ [آل عمران : ١٤-١٧]

فهذه هى الثمرات الأخلاقية للإيمان ، وهذه هى صفات المؤمن التقى الذى آثر ما عند الله على شهوات الحياة : خشية من الله و حرص على رضاه و مغفرته ، وصبر وصدق وقنوت وإنفاق ، بلا ادعاء ولا غرور ، بل شعور بالتقصير ، يجعله يستغفر الله على كل حال .

إن المثل الأعلى للمؤمن أن يقترب من الله فى عُلاه ، ويحصل على مثوبته ورضاه وهذا يجعل حياته كلها موصولة الأسباب بالله ، ويجعله يحيا دائماً وهو يرجو الله والدار الآخرة ، ويجعل أكبر همه أن يتخلق بأخلاق الله ، وينأى بنفسه عن مشابهة الأنعام والسباع والشياطين .

ولقد زعم بعض الكاتبين أن الدين كَلَّف الناس شططاً ، بل محالاً ، حين طلب إليهم أن يتخلَّقوا بأخلاق الله . كأنه تصوَّر أن هذه الدعوة تعنى أن يتحوَّل الإنسان إلى إله !

وهذا وهم بعيد عن الصواب ، فإن مطالبة الإنسان أن يتخلَّق بأخلاق الله

معناها : المحاولة الدائبة للصعود والترقى . والسعى المتواصل من قِبَلِ الإنسان ليقبس من كمال الأُلوهية بقدر طاقته واستعداده البَشرى .

إن الله عليم حكيم ، فليحاول الإنسان أن يتصف بالعلم والحكمة بقدر طاقته البَشرية ، والله رؤوف رحيم ، فليحاول الإنسان أن يتصف بالرأفة والرحمة بقدر طاقته البشرية . والله غنى كريم ، فليحاول الإنسان أن يتصف بالغنى والكرم بقدر طاقته البشرية . والله صبور حليم ، فليحاول الإنسان أن يتصف بالصبر والحلم بقدر طاقته البَشرية . والله جبار متكبر ، فليحاول الإنسان أن يكون جباراً على المبطلين والطغاة متكبراً عن دنايا الأخلاق وسفاسف الأعمال . والله عزيز ذو انتقام ، فليحاول الإنسان أن يكون عزيزاً على الكافرين وذا نقمة على المفسدين الظالمين . والله شكور غفور ، فليحاول الإنسان أن يكون شكوراً لمن أحسن إليه ، غفوراً لمن اعتذر إليه ، والله على صراط مستقيم ، فليحاول الإنسان أن يكون على صراط مستقيم حتى لا تضل به المسالك الملتوية . ولا تتفرق به السبل العوج .

والله تعالى متصف بكل كمال ، متنزه عن كل نقص ، فليضع الإنسان نصب عينيه أن يبرأ من النقص وأن يتصف بالكمال حسب جهده .

فأى إيحاء أكرم وأعظم تأثيراً فى النفس الإنسانية من هذا الإيحاء : التخلُّق بأخلاق الله والاقتباس من كمال الأُلوهية ؟ وأى مثل أعلى يدانى هذا المثل الذى اتخذه المؤمن نصب عينيه : أن يقترب من الله ويوثق صلته به ، عن طريق العمل الصالح الذى يحبه الله ويرضاه ؟

● متاع الحياة وخطره على الأخلاق :

ثم إن أخطر شيء على أخلاق الناس هو هذه الدنيا بمتاعبها ومغرياتها ، الدنيا بزخارفها وشهواتها من النساء والبنين ، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والخيل المسوَّمة[1] والأنعام والحرث .

---

(١) تمثلها الآن السيارات الفارهة بمختلف أصنافها وألوانها .

إن الغُلو فى حب الدنيا هو رأس كل خطيئة ، والتنافس عليها أساس كل بلية .

من أجل متاع الدنيا يبيع الأخ أخاه . ومن أجل متاع الدنيا يقتل الابن أباه ، ومن أجلها يخون الناس الأمانات ، وينكثون العهود ، ومن أجلها يجحد الناس الحقوق وينسون الواجبات ، ومن أجلها يبغى الناس بعضهم على بعض ويعيشون كسباع الغابة أو أسماك البحار ، يفترس القوى الضعيف ، ويلتهم الكبير الصغير ، ومن أجل شهوات الدنيا ومفاتنها يغش التجار ويطففون ، ويتجبر الرؤساء ويستكبرون ، ويجور القضاة ويرتشون ، ويطغى الأغنياء ويترفون ، وينافق ضعفاء النفوس ويتزلفون .

من أجل الدنيا يكتم العالِم ما يعلم أنه الحق ، ويُفتى بما يعتقد أنه الباطل .

من أجل الدنيا يُروِّج الصحفى الأكاذيب والزور ، ويخفى الحقائق وهى أوضح من فَلق الصبح .

من أجل الدنيا يهجو الشاعر كل حليم رشيد ، ويزف عرائس المديح إلى كل سِكِّير وعربيد .

من أجل الدنيا تُسفك الدماء ، وتُستباح الحرمات ، وتُداس القيم ، ويُباع الدين والشرف والوطن والعِرض وكل معنى إنسانى كريم .

كل هذا من أجل الدنيا ومتاع الدنيا وشهوات الدنيا : من أجل امرأة أو كأس أو عمارة أو قطعة أرض أو منصب يصغر أو يكبر ، أو دنانير تقل أو تكثر ، أو حظوة لدى رئيس ، أو شهوة بين الناس ، أو غير ذلك من هَمِّ البطن ، وشهوة الفرج ، وحب الجاه والمال ، وشهوة السيطرة والاستعلاء .

أجل إن حب الحياة والأمل فيها جزء من فطرة الإنسان ، ولولا ذلك ما عمرت الأرض ولا ترعرت شجرة الحياة ، فلم يكن مما ينافى الحكمة أن يزين للناس حب الشهوات ، ولكن الخطر كل الخطر أن يستغرق الناس فى حب الدنيا وطول الأمل فيها ، وأن تكون هذه الحياة القصيرة أكبر همهم ، ومبلغ علمهم ، ومنتهى

آمالهم، شأن أولئك الذين لا يرجون لقاء الله ولا يؤمنون بيوم الحساب ، وأولئك الذين يؤمنون بالآخرة ولكنهم عنها مشغولون ولها ناسون ، ولهذا علَّمنا رسول الإسلام أن ندعو الله فنقول : « اللَّهم لا تجعل الدنيا أكبره همنا ولا مبلغ علمنا » .

إنه لا بد من حب آخر وأمل آخر ، أقوى من حب الحياة الدنيا ومن الأمل فيها ، وليس ذلك إلا حب الآخرة والأمل فى لقاء الله ، والطمع فى مثوبته ورضوانه، والخوف من حسابه وعذابه . إن هذه المعانى من الحب والأمل والطمع والخوف هى العواصم المنجية من أخطار المحبة للدنيا والحرص عليها والركون إليها ، إنها (صمام الأمن) من خطر الإغراق والإسراف فى الإقبال على شهوات الحياة .

وذلك هو دور الإيمان الذى يغمر قلب صاحبه يقيناً بالآخرة ورجاء فيما عند الله . ومن هنا تكرر وصف المحسنين والمتقين فى القرآن بقوله : ﴿ **وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ** ﴾ [النمل:٣] وفى مقابل ذلك قال فى شأن الطغاة والمجرمين : ﴿ **إِنَّهُمْ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ حِسَاباً * وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّاباً** ﴾ [النبأ:٢٧-٢٨] وفى مشهد من مشاهد الآخرة يقص علينا القرآن تساؤل المؤمنين فى الجنة عن المجرمين فى النار : ﴿ **مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ** ﴾ [المدثر :٤٢-٤٦] وقال فى شأن فرعون وملئه : ﴿ **وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لاَ يُرْجَعُونَ** ﴾ [القصص : ٣٩] .. ولو ظنوا أنهم إلى ربهم راجعون ، وعليه معروضون ما أقدموا على ما فعلوا من الجرائم البشعة ، والمذابح الرهيبة ، والمظالم القاسية .

إن المؤمن بالله والآخرة هو الذى يستطيع أن يعلو على شهوات الدنيا ، وأن يطرح مغرياتها وراء ظهره ، وأن يركل متاعها بقدمه ويقول لها ما قال علىّ بن أبى طالب ، رضى الله عنه : (إليك عنى . يا صفراء يا بيضاء ، غُرِّى غيرى .. إلىَّ تعرضت أم إلىَّ تشوفت ؟ قد طلقتك ثلاثاً لا رجعه فيها) ! بل يقول ما قاله الرسول عليه الصلاة والسلام حين دخل عليه عمر وهو على حصير قد أثَّر فى جنبه

فقال له : يا رسول الله ؛ لو اتخذتَ فراشاً أوثر من هذا ؟ فقال : « ما لى وللدنيا ؟ ما مثلى ومثل الدنيا إلا كراكب سار فى يوم صائف ، فاستظل تحت شجرة ساعة ثم راح وتركها »(١) .

الإيمان وحده هو الذى يعطى المؤمن هدفاً أكبر من الدنيا ، ويشده إلى قيم أرفع أبقى من شهواتها . الإيمان وحده هو الذى يعطى صاحبه القدرة على مقاومة إغراء الدنيا وفتنتها . إنه قد يملك الدنيا ولكنها لا تملكه ، وقد تمتلئ بها يداه ، ولكن لا يمتلئ بها قلبه ، وذلك أنه يعيش فى الدنيا بروح المرتحل ، كأنه غريب أو عابر سبيل ، ومن عاش فى الدنيا بهذه الروح فلا خوف من امتلاك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، إنه يحيا فى الدنيا بقلب أهل الآخرة ، ويمشى وقدمه فى الأرض ، وقلبه موصول بالسماء .

المؤمن وحده هو الذى امتلأ يقيناً بأن الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة ، وأنها قنطرة عبور الحياة الباقية ، وأن ركعتين خاشعتين لله عند الله خير من الدنيا وما فيها ، وأن غَدوة أو رَوحة فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها ، وأن موضع قدم الإنسان فى الجنة خير من الدنيا وما فيها . وحسب المؤمن أن يعلم أن أنبياء الله ورسله وأولياءه عاشوا فى الدنيا معذَبين مضطهَدين ، وأن أعداءه وأعداء رسله من الكفرة والمكذبين والملحدين كثيراً ما عاشوا مُنعَّمين مُترَفين . ﴿ **وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ * وَزُخْرُفاً وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ [الزخرف : ٣٣-٣٥]

ليس معنى هذا أن يقعد المؤمن عن السعى فى الحياة ، أو يُحَرِّم على نفسه طيباتها ، أو يدع عجلتها لقيادة الكُفَّار والفُجَّار .

كلا ، إنه مأمور أن يعمر الدنيا ، وأن ينميها ويرقيها ، مأمور أن يمشى فى

---

(١) رواه أحمد وابن حبان فى صحيحه والبيهقى .

مناكب الأرض ويأكل من رزق الله فيها ، وينعم بطيباتها ، ويُسخِّرها لخدمة رسالته وعقيدته ، وأن يكون فيها سيداً لا عبداً .

إن الاستعلاء على متاع الدنيا والاستكبار على شهواتها ومغرياتها ، ليس معناه أبداً تحريم طيباتها ، أو تعطيل مصالحها ، أو تعويق سيرها ، إنما المقصود أن تكون الآخرة مراد المؤمن وغاية سعيه ، فلا يكون ممن يريد حرث الدنيا ، ممن يريد العاجلة .. ممن وصفه القرآن بأنه : ﴿ **طَغَى * وَآثَرَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا** ﴾

[النازعات : ٣٧-٣٨]

وخاطب الرسول شأنه بقوله : ﴿ **فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الحَيَاةَ الدُّنْيَا * ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ العِلْمِ** ﴾ [النجم : ٢٩-٣٠] ..

بل يجب أن يكون المؤمن ممن أراد الآخرة وسعى لها سعيها ، واتخذ الدنيا وسيلة لا غاية ، وممراً لا مقراً .

إن الذى لا يُوقن بالآخرة يقيناً جازماً ، يصعب فطامه عن شهواته ، وصرف عن مجونه ولذَّاته ، لأنه لا يرضى أن يبيع لذَّة حاضرة يقينية ، من أجل لذَّة آجلة مشكوك فى وقوعها عنده .

فلا نعجب إذا سمعنا مثل عمر الخيَّام يقول ما ترجمته بالعربية :

قالوا : امتنع عن شرب بنت الكروم فإنها تُورث نار الجحيم !
ولذَّتى فى شربها ساعة تعدل فى عينى جنان النعيم !

* * *

أين النديم السمح ؟ أين الصَبوح ؟ فقد أمضَّ الهم قلبى الجريح !
ثلاثة هُنَّ أحبُّ المُنى كأس وأنغام ووجهٌ صبيح

وإنما قال هذا الرجل ما قال ، لغلبة شكه على يقينه ، ولو أيقن بالآخرة حقاً ، لهانت الكأس والأنغام والوجه الصبيح ، وهانت الدنيا كلها ، فى جنب ثواب الله تعالى ورضونه .

إن الإيمان قوة قاهرة غلاَّبة ، أقوى من الغرائز والشهوات ، وأقوى من سلطان العادات ، وأقوى من كل المؤثرات .

● **سلطان الغريزة وسلطان الإيمان :**

لا ريب أن للغرائز فى دفع الإنسان سلطاناً لا يُنكر . ولكن المُثُل العُليا التى يعيش لها المؤمن تعلو به على الغرائز وسلطانها (١) .

والغريزة الجنسية بخاصة لعلها أعتى الغرائز وأقواها ، حتى إن فى علماء النفس من فَسَّر بها السلوك البَشرى كله ، مثل « فرويد » : وهو تفسير حيوانى يتجاهل غرائز الإنسان الأخرى ، وسائر مَلَكاته الروحية ودوافعه النفسية ـ وليس هنا موضع مناقشته (٢) .

وفى الشباب تتجلى هذه الغريزة على أشدها ، فالشباب شعلة متوهجة لعظم طاقته الحيوية ، وقوة دوافعه النفسية ، وقلة علمه وتجاربه فى الحياة ، بجانب أحلامه وخيالاته الكثيرة ، فماذا يمنع الشاب الناضر الفتوة ، القوى الغريزة أن يقضى شهوة جنسية مع امرأة لا تحل له إذا تيسرت له أسبابها ، وتهيأت وسائلها دون خشية من عقاب أو قانون أو عين الناس ؟

لا شئ يمنعه إلا الإيمان .. هذا ما حدث ليوسف عليه السلام : شاب فى ريعان الشباب ، مكتمل الرجولة ، رائع الفتوة ، تدعوه إلى نفسها امرأة ذات منصب وجمال ، ليست من عامة الناس ولكنها امرأة العزيز الذى هو فى بيتها وهوعبدها وخادمها ، والأبواب مُغلقة ، والسُبل مُيَّسرة ، كما حكى القرآن : ﴿ **وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ** ﴾ [يوسف :٢٣] . .

فماذا كان موقفه أمام هذا الإغراء . وتلك الفتنة التى تخطف الأبصار ؟

---

(١) أصبح علماء النفس لا يستحسنون كلمة « الغرائز » ويستعملون بدلها « الدوافع النفسية » ولكنا آثرنا كلمة الغرائز لشيوعها وظهور معناها لدى جمهور الناس ولا مشاحة فى الاصطلاح .

(٢) راجع كتاب « الإنسان بين المادية والإسلام » لمحمد قطب .

ألانت قناته فاستسلم وخان عرضاً اؤتمن عليه ؟ كلا .. إنما قال : ﴿ **قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ** ﴾ [يوسف :٢٣] ..

ولقد حاولت المرأة بكيدها ومكرها وبكل ما لديها من ألوان الإغراء والتهديد أن تُذيب من صلابته وتُضعضع من شموخه ، وأعلنت ذلك لنسوتها فى ضيق وغيظ ﴿ **وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِّنَ الصَّاغِرِينَ** ﴾ [يوسف :٣٢] ..

ولكن الشاب يوسف اتجه إلى الله يسأله المعونة والعصمة ﴿ **قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ** ﴾ [يوسف :٣٣]

كانت فتنة بين ضمير المؤمن ، ومغريات الإثم ، ففشلت المغريات وانتصر الإيمان .

والغريزة من شأنها أن تطلب متنفساً ، فإن طال حبسها خيف عليها الانفجار ما لم يحجزها سد الإيمان .

وهذه امرأة يغيب عنها زوجها فترة طويلة من الزمن ، فتُخيِّم عليها كآبة الوحشة ، وتهجم عليها هواجس الوحدة ، ويثور فى عرقها دم الأنوثة ، وينطق فيها صوت الغريزة فلا يصدها إلا حاجز الإيمان ، وفى جنح اللَّيل باتت تنشد :

لقد طال هذا اللَّيل واسوَدَّ جانبه وأرَّقنى أن لا حبيب ألاعبه

فوالله لولا الله تُخشى عواقبه لحُرك من هذا السرير جوانبه

وغريزة المقاتَلة التى عبَّر عنها الأقدمون ، بالقوة الغضبية ، أو القوة السبعية ، والتى تُثير الإنسان أن يرد الصاع صاعين ، وتدفعه إلى التدمير والانتقام ، وبها يبدو كالوحش الهائج ، أو الإعصار المدمر . جمرة من النار يُلقيها شيطان الغضب فى جوفه فتنتفخ أوداجه ، وتحمر عيناه ، ويبدو كأن له مخالب وأنياباً ؟

ما الذى يُقَلِّم أظافر هذه الغريزة ، ويُلقى على هذه الجمرة المتقدة ماء الهدوء والسلام ؟

إنه الإيمان الذى يحمل المؤمن أن يكظم الغيظ ، ويعفو عمن ظلمه ، ويحلم على مَن جَهَلَ عليه ، ويُحسن إلى مَن أساء إليه ، ويجعله يحس فى مرارة جرعة الغيظ ، حلاوة يجدها فى صدره .

وقد قصَّ علينا القرآن قصة ابنى آدم بالحق : ﴿ **إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ** ﴾ [المائدة : ٢٧] فما كان ابن آدم الشرير إلا أن قال لأخيه : ﴿ **لأَقْتُلَنَّكَ** ﴾ [المائدة : ٢٧] .. قال المؤمن الصالح : ﴿ **إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [المائدة : ٢٧-٢٨]

خوف الله إذن هو الذى يكف الأيدى أن تمتد بالأذى ، وإن التهبت الغريزة، ودفعت إلى العدوان . وقد قال عمر : « من اتقى الله لم يشف غيظه ، ومن خاف الله لم يفعل ما يريد ، ولولا يوم القيمة لكان غير ما ترون » .

وكلَّم رجلٌ يوماً عمر بن عبد العزيز ، فأساءَ إليه حتى أغضبه ـ وهو أمير المؤمنين ـ فَهَمَّ به عمر ، ثم أمسك نفسه وقال للرجل : أردت أن يستفزنى الشيطان بعزة السلطان فأنالُ منك ما تنالـه منـى غداً ؟ ـ أى فى الآخرة ـ قم عافاك الله ، لا حاجة لنا فى مقاومتك .

● **الإيمان ينتصر على الأنانية :**

وغريزة الأنانية أو حب الذات غريزة عاتية جبارة ، لايكاد يخلو بشر من سلطانها عليه ، وقوة دفعها له ، وتوجيهها لسلوكه . وإنكَ لترى الناس تدفعهم الأنانية إلى التنافس على الدنيا ومتاعها ، ويدفعهم التنافس إلى التنازع والاختصام، ويدفعهم ذلك إلى ادعاء ما ليس لهم ، وجحود ما عليهم من حق ، وأكل أموال الناس بالباطل ، وعندما يطل شيطان الخصومة برأسة لا يكون إلا حب الغلب بأى ثمن ، وأية وسيلة .

ولكن عنصر الإيمان إذا دخل المعركة أطفأ لهب الخصومة ، فصارت نارها بَرْداً وسلاماً ، وحطَّم طغيان الأنانية فاستحالت تسامحاً وإيثاراً ، وحلَّق بالمؤمن من المتاع الأدنى إلى المَثل الأعلى .

وفى القصة التى روتها أم سلمة زوج الرسول مثل واضح على مبلغ أثر الإيمان : رجلان يختصمان فى مواريث وليس لهما بَيِّنَة إلا دعواهما ، كلاهما يقول : هذا حقى ، ويُنكر على صاحبه أن يكون له حق . . ويحتكم الجلان إلى رسول الله ﷺ وفى صدر كل منهما فرديته وأنانيته ، فيصدع الرسول آذانهما وقلبيهما بهذه الكلمات الحية : « إنما أنا بشر ، وإنكم تختصمون إلىَّ ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض . فأقضى له علىَ نحو ما أسمع منه ، فمن قضيتُ له من حق أخيه بشىء فلا يأخذ منه شئاً ، فإنما أقطعُ له قطعة من النار » .

سمع الرجلان المختصمان هذه الكلمات الهادرة ، فلمست أوتار الإيمان من صدريهما ، وأيقظت فيهما خشية الله والدار الآخرة ، فبكى الرجلان ، وقال كل منهما لصاحبه : حقى لك !

فقال النبى ﷺ : « أما إذا فعلتما فاقتسما وتوخيا الحق ، ثم استهما . ثم تحالا »[1] (أى ليحل كل منكما صاحبه وليسامحه فيما عسى أن يكون حقه) .

هنا كانت كلمة الإيمان ، وكلمة الضمير الذى أيقظه الإيمان ، هى القول الفصل ، والقضاء العدل فى قضية يعجز القانون المجرَّد ، والقضاء الظاهر ، عن معرفة الحق فيها ما دام الطرفان متنازعين ، ولا بَيِّنَة لأحدهما .

وقد قص النبى ﷺ على أصحابه قصة رجلين مؤمنين ، ضربهما مثلاً لما يجب أن يكون عليه المؤمن من العفاف والزهد والإيثار قال :

« اشترى رجل من رجل عقاراً له ، فوجد الرجل الذى اشترى العقار فى عقاره جرَّة فيها ذهب ، فقال للذى اشترى العقار منه : خذ ذهبك عنى ، إنما اشتريتُ منك الأرض ولم أبتع منك الذهب .

فقال الآخر : إنما بعتُك الأرض وما فيها !

قال ﷺ : فتحاكما إلى رجل . . فقال الذى تحاكما إليه : ألكما ولد ؟

---

(١) القصة فى كتاب « الأقضية » من سنن أبى داوود .

فقال أحدهما : لي غلام .

وقال الآخر : لي جارية .

فقال الحكم : « أنكحوا الغلام الجارية ، وأنفقوا على أنفسكم منه وتصدقا »[1] .

وهكذا يرى الناس لوناً ممتازاً من النفوس : رجلان وأمامهما جرَّة فيها ذهب لا يتقاتلان عليها . ولكن يتدافعانها ، يقول كل منهما لصاحبه : هي لك ..

على حين نرى الإنسان دائماً يقول : هذا لي !

● **سلطان العادة وسلطان الإيمان :**

هكذا يقف الإيمان القوى أمام طغيان الغرائز الإنسانية فكيفكف من غلوائها، ويحد من شرها ، ويُقوِّم من انحرافها ، ويوجهها وجهة الخير والسداد والصلاح ، ولكن الإنسان لا يخضع لسلطان الغريزة وحدها ، وإنما يؤثر فيها ـ وراء الغرائز ـ شيء آخر ، وله سلطانه القاهر ، وكلمته النافذة ، ذلك الشيء هو العادة .

والعادة تتكوَّن من ميل الإنسان إلى شيء ما ، ثم استجابته لهذا الميل ، وفعله لهذا الشيء ، ثم تكراره لهذا الفعل مرة بعد مرة ، ويوماً بعد يوم . حتى ترتبط بأعصابه ، وتخط فيها مجرى يختلف في سعته وعمقه تبعاً لقوة العادة وضعفها ، ويؤدى هذا الفعل بعد ذلك بيسر وسهولة ، أداء يكاد يكون آلياً ، ليس فيه إلا قليل من الانتباه والتفكير ، ويصبح الامتناع عن هذا الأمر ـ بعد أن صار عادة ـ من الصعوبة بمكان .

● **سلطان العادة وقوتها :**

ولقد قال بعض الباحثين : « إن الإنسان يكاد يكون مجموعة عادات تمشى على الأرض » وقال روسو : « يُولد الإنسان ويموت مُسترقاً مُستعَبداً ، ويُشد عليه القماط يوم يُولد ، والكفن يوم يموت » يريد أنه ـ فيما بين المهد واللحد ـ أسير للعادات ، مُستعبَد للتقاليد .

---

(١) القصة رواها مسلم في صحيحه .

وقال القدماء : « العادة طبيعة ثانية »يعنون بذلك أن لها من القوة ما يقرب من « الطبيعة الأولى » والطبيعة الأولى هى ما وُلِدَ عليه الإنسان وفُطرَ عليه . فكل إنسان خرج من هذا العالم كآلة مجهزة بكثير من العدد : عين تبصر ، وأذن تسمع، ومعدة تهضم ، وغرائز فطرية .. وهكذا . فهذا الذى وُلِدْنا عليه وورثناه من آبائنا وأجدادنا هو : طبيعتنا الأولى ، ولها سلطان كبير على الإنسان ، فلو حاول أن يبصر بأذنه ويسمع بعينه ما استطاع ، فهو لا بد خاضع لسلطانها .

وما يُدخله الإنسان على الطبيعة الأولى من التحسين والتقبيح هو ما يُسمى « الطبيعة الثانية » أو « العادة » ولها كذلك سلطان كبير . فالطريق الذى نختطه لأنفسنا فى الحياة ، ونعتاد السير فيه ، له من السلطان علينا ما يقرب من سلطان الطبيعة ، فنحن أحرار فى السنين الأولى من حياتنا ، لا سلطان للعادة علينا، حتى إذا نمونا كان نحو التسعين فى المائة من أعمالنا ـ من لبس وخلع وطريقة أكل وشرب ونمط فى الكلام والسلام والمشى والمعاملة ـ معتاداً ، نعمله بقليل من الفكر والانتباه ويصعب علينا العدول عنه ، وتصبح حياتنا مجرد تكرير لأفكار وأعمال كسبناها فى مقتبل الحياة » .

ذلك هو مبلغ سلطان العادة على الإنسان ـ فرداً كان أو جماعة ـ فإذا كانت عاداتة صالحة فما أسعده بها ، وإن كانت عاداته قبيحة ضارة فما أتعسه وما أشقاه بها ! إنه يأكل الشىء الذى يضر جسمه ، ويشرب الشىء الذى يُغَيِّب عقله ، ويلبس الشىء الذى يضايقه ويخنقه ، ويرتكب الشىء الذى يستقبحه ويستهجنه . وما ذلك إلا لسلطان العادة عليه ، وغلبتها على عقله وإرادته . وحسبنا دليلاً على هذا مانراه بأعيننا فى المدمنين لشرب المسكرات ، وتناول الكيوف والمخدرات ولعب الميسر والقمار .

● **سلطان الإيمان أقوى :**

وللتخلص من عادة متمكنة لا بد من إعلان حرب عليها : حرب ساخنة ملتهبة ، لا ينصر فيها إلا من تسلح بإرادة قوية ، وعزم فولاذى لا يتزعزع ولا يلين ، وتصميم على الانتصار لا يشوبه يأس أو تردد أو تراخ .

هذ هو سبيل الانتصار على العادات الضارة المنتشرة فى مجتمع من المجتمعات ، لا العقوبات القاسية ، أو القوانين الرادعة وحدها . وكم رأينا فى القديم والحديث من قوانين وعقوبات ارتدت مدحورة أمام جبروت العادات .

ومَن لنا بالعزم والتصميم الذى يقهر العادة ويدحرها ؟ إنه الإيمان الذى يشحذ العزائم ، ويسمو بالنفوس ويمدها بقوى المقاومة والجلاد الباسل ، فتخر أمامها أسوار العادات والتقاليد .

● **تحريم الخمر بين الولايات المتحدة وأمة العرب :**

ولكى يتضح لنا أثر الإيمان فى تغيير العادات المتمكنة ، وتربية النفوس على عمل الخير وإن كان شاقاً ، وترك الشر وإن كان مألوفاً ومعتاداً ـ نُقيم موازنة بين موقفين فى مشكلة واحدة : موقف من التاريخ الحديث ، وموقف من التاريخ القديم، يُصوِّران لنا كيف يصنع وازع الإيمان ما يعجز عنه وازع السلطان . الوقف الأول فى الولايات المتحدة الأمريكية .. وقد انتشرت فيها عادة السُكْر وشرب الخمور انتشاراً أقنع الحكومة بضرر ذلك على الفرد والأسرة والمجتمع ، فأصدرت الحكومة قانوناً يمنع الخمر ، ثم تبيَّن لها بعد مدة يسير أنها عاجزة تمام العجز عن تنفيذ قانونها ، وأن أفراداً وجماعات أخذوا يعيثون فى الأرض فساداً بتعاطى الخمور وتهريبها والاتجار بها ، والتفنن فى صناعتها على استخفاء ، واستحضار أخبث أنواعها أكثر من ذى قبل .

ومما ينبغى أن نلتفت إليه أن هذا الحظر لم يكن (أمراً ملكياً) أو منشوراً من إمبراطور مستبد أراد أن يُرغم شعبه بسلطان القوة ، وقوة السلطان .

كلا .. إنه تشريع جاء عن طريق برلمان ديمقراطى دستورى حر ، من شأنه أن يُشرِّع لنفسه ما يجلب له النفع ، ويدرأ عنه الفساد والضرر ، وقد شرَّع هذا القانون بعد أن اقتنع به الرأى العام وتحقق له من الوجهة العلمية والعملية أن الخمر ضارة بالصحة ، مُفسدة للعقل مُحطمة للحضارة .

فحوالى عام ١٩١٨ ثارت المشكلة فى الرأى العام الأمريكى . وفى عام

١٩١٩ أدخل الدستور الأمريكى تحت عنوانه : « التعديل الثامن عشر » وفى نفس السنة أيد هذا التعديل بأمر حظر ، أطلق عليه التاريخ قانون « فولستد » .

وقد أعدت لتنفيذ هذا التحريم داخل الأراضى الأمريكية كافة وسائل الدولة وإمكاناتها الضخمة :

١- جُنِّدَ الأسطول كله لمراقبة الشواطئ ، منعاً للتهريب .

٢- جُنِّدَ الطيران لمراقبة الجو .

٣- شُغلت أجهزة الحكومة واستُخدمت كل وسائل الدعاية والإعلام لمحاربة الخمر وبيان مضارها ، وجُنِّدَت كذلك المجلات والصحف والكتب والنشرات والصور والسينما والأحاديث والمحاضرات وغيرها .

ويَقدِّرون ما أنفقته الدولة فى الدعاية ضد الخمر بما يزيد على (ستين مليوناً) ٦٠,٠٠٠,٠٠٠ من الدولارات ، وأن ما أصدرته من كتب ونشرات يبلغ (عشرة بلايين) ١٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ صفحة ، وما تحملته فى سبيل تنفيذ قانون التحريم - فى مدة أربعة عشرة عاماً - لا يقل عن ٢٥٠,٠٠٠,٠٠٠ (مائتين وخمسين مليون دولار) ، وقد أعدم فى هذه المدة ٣٠٠ (ثلثمائة) نفس ، وسُجِنَ ٥٣٢و٣٣٥ نفس ، وبلغت الغرامات ١٦,٠٠٠,٠٠٠ (ستة عشر مليون دولار) وصادرت من الأملاك ما بلغ ٤٠٤,٠٠٠,٠٠٠ (أربعمائة مليون وأربعة ملايين دولار) ، ولكن كل ذلك لم يزد الأمة الأمريكية إلا غراماً بالخمر ، وعناداً فى تعاطيها ، حتى اضطرت الحكومة سنة ١٩٣٣ إلى إلغاء هذا القانون ، وإباحة الخمر إباحة مطلقة (١) .

هذه هى نهاية المطاف ، وهذا هو ختام القصة :

فشل كامل لأمر الحظر .. وسقوط قرره التعديل الدستورى الحادى والعشرون الذى صدَّق عليه الكونجرس عام ١٩٣٣

---

(١) ذكر هذه الإحصاءات الأستاذ أبو الأعلى المودودى فى كتابه « تنقيحات » وعنه نقلها الأستاذ أبو الحسن الندوى فى كتابه « ماذا خسر العالَم بانحطاط المسلمين » ص ١٧٧ هامش .

وذلك هو الموجز التاريخى للمأساة التشريعية بأكملها .. وتلك التى سُميِّت فى تاريخ الأمة الأمريكية « عهد التحريم » .

لقد فشل القانون ، وعجزت السلطات ، وأفلست أجهزة الدولة ، فى منع الخمر ومحاربة السكِّيرين ، برغم الاقتناع العقلى الذى كان سائداً فى الأمة بضرر الخمر ، ولكن الاقتناع شىء وعمل الإرادة شىء آخر .

ولقد قال أحد الكُتَّاب الغربيين بحق :

« إن طلب شىء فى تصميم وقوة يتطلب روحاً من التعبد والتقشف ، أى تكريس الحياة لبلوغ مثل أعلى واحد ، اختاره الإنسان بعناية وتفطن ... إن الإرادة تغلب دائماً الثقافة ، حينما تكون الثقافة لا المبادئ الدينية هى التى يركز عليها تصميم المرء ونشاطه ومدده الروحانى » .

● فشلت الأساطيل ونجح الإيمان :

هذا موقف ، والموقف الآخر من تاريخنا العربى الإسلامى القديم :

فقد بُعِثَ محمد رسول الله وللخمر فى المجتمع العربى سريان وانتشار . تجرى من نفوس أبنائه مجرى الدم ، يتمدحون بشربها ، ويفتنون فى وصفها ووصف مجالسها وندمائها وأقداحها ، ويصور شاعرهم مدى تعلقة بها فيقول :

إذا متُّ فادفنى إلى جنب كَرْمَةٍ تروى عظامى بعد موتى عروقها

ولم يستطع امرؤ القيس الشاعر المعروف ـ وقد بلغه قتل أبيه ـ أن يدع الكأس من يده ، ويفارق مجلس ندمائه ، بل قالَ كلمته المشهورة : « اليوم خمر ، وغداً أمر »

ولم يعرف المجتمع الجاهلى إلا أفراداً معدودين على الأصابع عافوا شرب الخمر مروءة وسجل لهم ذلك التاريخ كمأثرة نادرة ، كزيد بن عمرو بن نفيل .

ومما يدل على اهتمامهم بالخمر أنهم وضعوا للتعبير عنها أسماء كثيرة ، وكنايات مختلفة ، وألقاباً متعددة ـ المُدامة ، والسُلافة ، الراح ، الصهباء ، ابنة

العنقود ، ابنة الكَرْم ، بنت الحان ، بنت الدنان ... إلى آخر الأسماء التى بلغت أكثر من مائة (١).

كما أن تجارتها عندهم كانت فى نماء وازدهار .

ومن أدلة شغفهم بها ، وتمكنها من نفوسهم ، أن كثيراً من الصحابة بعد أن نزلت الآيتان الأوليان فى شأن الخمر : ﴿ **قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ** ﴾ [البقرة:٢١٩] .. ﴿ **لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى** ﴾ [النساء:٤٣] .. ولم يكن التحريم فيهما صريحاً حاسماً ، لم يزالوا يشربون الخمر ما دام فى النص متسع لهم .

ذلك أن الإسلام تدرج معهم فى تحريم الخمر ـ رفقاً بهم وتيسيراً عليهم ـ حتى نزلت آية المائدة الصريحة القاطعة : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ** ﴾ [المائدة:٩٠-٩١] .

وهنا رأينا العجب .. رأينا الرجل يحطم كأسه ، ويسفك ما عنده من خمر فى الطريق حتى تفيض طرقات المدينة بما كان عند الناس منها .

عن أبى سعيد قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « يا أيها الناس ؛ إن الله يبغض الخمر ، ولعل الله سينزل فيها أمراً ، فمن كان عنده شىء فليبعه ولينتفع به » (وذلك قبل التحريم النهائى) قال أبو سعيد : فما لبثنا إلا يسيراً ، حتى قال : « إن الله حرَّم الخمر ، فمن أدركته هذه الآية ـ يعنى آية المائدة السابقة ـ وعنده منها شىء فلا يشرب ولا يبيع » قال أبو سعيد : فاستقبل الناس بما كان عندهم منها طُرق المدينة فسفكوها ـ أى صبوها وأسالوها ـ (رواه مسلم) .

وعن أنس قال : كنت أسقى أبا عبيدة وأبى بن كعب فجاءهم آت فقال : إن الخمر حُرِّمت .. فقال أبو طلحة : قم ياأنس فأهرقها . فأهرقتها (٢).

---

(١) « حلية الكميت » للنواجى ص ٦ وما بعدها .

(٢) متفق عليه .

وعن أبى موسى الأشعرى قال : بينما نحن قعود على شراب لنا ونحن نشرب الخمر حلةً - أى حلالاً - إذ قمتُ حتى آتى رسول الله ﷺ فأسَلِّم عليه وقد نزل تحريم الخمر: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ** ﴾ .. إلى قوله : ﴿ **فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ** ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١] .. فجئتُ إلى أصحابى ، فقرأتُها عليهم .. قال : وبعض القوم شُربته فى يده شرب بعضاً وبقى بعض فى الإناء ... فقال بالإناء تحت شفته العليا كما يفعل الحجام ثم صبوا ما فى باطيتهم فقالوا : انتهينا ربنا .. انتهينا ربنا [١] .

فهل رأت البشرية مثل هذا انتصاراً على النفس ، وسرعة فى الاستجابة ، وقوة فى الانقياد للأمر مهما يكن مخالفاً للعادات ، ومصادماً للشهوات ؟

● **الضمير ومكانه الأخلاق :**

فى أعماق النفس الإنسانية قوة خفية لا تُشاهَد بالعين ، ولا تُرى بالمجهر ، ولا يعرفها التشريح والفسيولوجيا (علم وظائف الأعضاء) ، إنها قوة معنوية يحسها الإنسان فى حناياه تهديه إلى الواجب كأنها كشَّاف يُنير له الطريق ، وتنجذب به إلى الخير كأنها الإبرة المغنطة تجذب دائماً نحو الشمال ، وتدفعه عن الشر كأنها صوت الأب يُحذِّر ولده ، أو الأستاذ ينصح تلميذه ، فإذا خالف ما تأمر به أو اقترف ماتحذر كانت هذه القوة محكمة تقضى له أو عليه .

تقضى له بالراحة والسرور والطمأنينة ، أو تحكم عليه بالألم والقلق والعذاب .

هذه القوة الكاشفة الهادية ، الآمرة الناهية ، المحذرة المُحرِّضة ، الحاكمة المُنفِّذة . هى التى سماها علماء الأخلاق « الضمير » وسماها بعضهم « الوجدان »

وسماها الإسلام « القلب » وقال الرسول لمن جاء يسأله عن البر والإثم : « البر ماسكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب . والإثم مالم تسكن إليه النفس ولم

---

(١) رواه الطبرنى فى تفسير آية المائدة .

يطمئن إليه القلب وإن أفتاكَ المفتون » وفى حديث آخر : « استفتِ قلبكَ وإن أفتاكَ الناس وأفتوكَ وأفتوكَ » .

إنها قوة تسبق العمل وتقارنه وتلحقه ، فتسبقه بالإرشاد إلى عمل الواجب والتحذير من المعصية ، وتقارنه بالتشجيع على إتمام العمل الصالح ، والكف عن العمل السيء وتلحقه بالارتياح والسرور عند الطاعة ، والإحساس بالألم والوخز عند العصيان .

هذا « الضمير » أو « الوجدان » أو « القلب » هو عماد الأخلاق ، وركيزتها الأولى ، فهو ـ كما رأينا ـ يهدى إلى ما تشابه منها ، ويرغب فى خيرها ، ويزع عن شرها ـ ويقف ديدباناً يقظاً على حراستها .

والمجتمع ـ أى مجتمع ـ لا يرقى وينتظم ويسعد بسن القوانين وإصدار القرارات وتنظيم اللوائح ، ويقظه رجال السُلطة . وإن كان لا يستغنى عن ذلك كله ـ وإنما يرقى وينتظم ويسعد ، بوجود القلوب الحية ، وتوافر الضمائر اليقظة بين أبنائه . ومن الحكم المشهورة : « العدل ليس فى نص القانون ، وإنما هو فى ضمير القاضى » .

هذه أهمية الضمير بالنسبة لمن يقضى ويحكم ، أما المحكومون بالقانون فقد قال قائلهم :

لن يصلح القانون فينا رادعاً حتى نكون ذوى ضمائر تردع

● **أثر الإيمان فى تكوين الضمير :**

والإيمان ـ بلا ريب ـ هو أعظم مدد للضمير ، وأقوى « مُوِّلد » يُغذيه ويمده « بالتيار » الذى يمنحه الضوء والحرارة والقوة المُحَرِّكة .

فعقيدة المؤمن فى الله أولاً . وعقيدته فى الحساب والجزاء ثانياً . تجعل ضميره فى حياة دائماً وف صحو أبداً .

إنه يعتقد أن الله معه حيث كان ، فى السفر أو فى الحَضَر ، فى الجلوة أو فى الخلوة ، لا يخفى عليه خافية ، ولا يغيب عنه سر ولا علانية : ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّه**

﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ القِيَامَةِ إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المجادلة:٧] ، ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس:٦١] وقد كان المشركون يأتمرون برسول الله ﷺ فينزل الوحي من الله يفضح سترهم ، ويكشف أمرهم ، فقال بعضهم لبعض : غُضُّوا أصواتكم حتى لا يسمعنا إله محمد ! فنزل قوله الله تعالى : ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ ﴾ [الملك:١٣-١٤] . .

ويعتقد المؤمن لذلك أنه مُحاسب يوم القيامة على عمله ، مجزيٌّ به إن خيراً أو شراً فما تقدم من عمل لم يذهب بذهاب أيامه ، بل كتبه « قلم التسجيل » الإلهي ، الذي يُحصي له وعليه الصغير والكبيرة : ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ اليَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق:١٧-١٨] ، ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار:١٠-١٢] ، ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لاَ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف:٨٠] .

وهذه السجلات الوافيه لن يضيعها الإهمال ، أو يمحوها مرور الزمان .

إنها ستحفظ عند الله حتى يتلقاها صاحبها يوم الجزاء : ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ اليَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾ [الإسراء:١٣-١٤] .

وحينذاك يجد ما كان يحسبه هيناً وهو عند الله عظيم ، ويذكر من الأعمال ما كان ناسيا : ﴿ وَوُضِعَ الكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا

مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾ [الكهف:٤٩] ، ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾

[المجادلة:٦]

هناك توزن الأعمال من خير أو شر ، من حسنات وسيئات ، بميزان إلهى دقيق لا يُعرف كنهه ولا كيفيته ، ثم الحساب الإلهى العادل : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء:٤٧] ، ﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف:٨ ـ ٩] . .

وبعد ذلك . فريق فى الجنة وفريق فى السعير : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً ﴾ [النساء:١٧٣]

بهذه العقيدة فى الله ، وفى الجزاء فى الآخرة يُصبح المؤمن ويُمسى مراقباً لربه محاسباً لنفسه ، متيقظاً لأمره متدبراً فى عاقبته ، لا يظلم ولا يخون ، لا يتصْول ولا يستكبر ، لا يجحد ما عليه ، ولا يدعى ما ليس له ، لا يفعل اليوم ما يخاف من حسابه غداً ، ولا يعمل فى السر ما يستحى منه فى العلانية ، يقول ما قال الصوفى الشاعر :

إذا ما خلوتَ الدهر يوماً فلا تقل خلوتُ ، ولكن قل : عليَّ رقيب

ولا تحسبن اللهَ يغفل ساعة ولا أن ما تخفيه ، عنه يغيب

وسُئل بعضهم عن قوله تعالى ﴿ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ [البينة : ٨] . فقال : معناه : لمن راقب ربه عز وجل وحاسب نفسه وتزوَّد لمعاده .

وقال محمد بن علىّ الترمذى : اجعل مراقبتك لمن لا تغيب عن نظره إليك ،

واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك ، واجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه ، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن مُلكه وسلطانه .

وسُئل ذو النون : بِمَ ينال العبد الجنة ؟ قال : بخمس : استقامة ليس فيها روغان ، واجتهاد ليس معه سهو ، ومراقبة لله فى السر والعلانية ، وانتظار الموت بالتأهب له ، ومحاسبة نفسك قبل أن تُحاسَب .

إن الضمير الحى الذى يربيه الإيمان برقابة الله وبحساب الآخرة ضمير حى يقظ مرهف الحساسية . يُحاسب المؤمن قبل أن يقوم على العمل : ماذا تعمل ، ولماذا تعمل ، ولمن تعمل ؟ ويحاسبه بعد العمل : ماذا عملت ، ولماذا عملت ، وكيف عملت ؟ هو قاض مستعجل يصدر حكمه سريعاً بالمثوبة أو العقوبة ، وليست عقوبته مقصورة على الوخز النفسى واللذع المعنوى ، إنه أحياناً يُقرِّر عقوبات مادية أيضاً .

قال الحسن البصرى فى قوله تعالى : ﴿ وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ [القيامة :٢] قال لا يلقى المؤمن إلا يُعاتِب نفسه : ما أردتُ بكلمتى ؟ ما أردت بأكلتى ؟ماذا أردتُ بشربتى ؟ والفاجر يمضى قُدماً لا يعاتب نفسه .

وقال أيضاً : المؤمن قوَّام على نفسه يحاسبها لله ، وإنما خف الحساب على قوم حاسبوا أنفسهم فى الدنيا ، وإنما الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة ـ ثم فسَّر المحاسبة فقال : ـ : المؤمن يفجؤه الشىء يعجبه فيقول : والله إنكَ لتعجبنى وإنكَ من حاجتى ولكن هيهات . حيل بينى وبينك ـ وهذا حساب قبل العمل ـ ثم قال : ويفرط منه الشىء ، فيرجع إلى نفسه فيقول : ماذا أردتُ بهذا ؟ والله لا أُعذر بهذا ، والله لا أعود إلى هذا أبداً إن شاء الله ـ وهذا حساب بعد العمل .

قال مالك بن دينار : رحم الله امرءاً قال لنفسه : ألست صاحبة كذا ؟ ألست صاحبة كذا ؟ . ثم زمَّها ثم خطمها ثم ألزمها كتاب الله فكان له قائداً . وقال إبراهيم التيمى : مثلتُ نفسى فى الجنة آكل من ثمراتها ، وأشرب من أنهارها،

وأعانق أبكارها .. ثم مثلتها فى النار آكل من زقومها ، وأشرب من صديدها ، وأعالج سلاسلها وأغلالها .. ثم قلتُ لنفسى : يا نفس ، أى شىء تريدين؟ قالت : أُريد أن أُرَدَّ إلى الدنيا ، فأعمل صالحاً ، قال : فأنتِ فى الأُمنية فاعملى !!وهذه طريقة اتخذها الرجل فى إيقاظ نفسه ، وإن شئتَ فقل : فى إحياء ضميره . لقد تخيَّل المتوقع واقعاً والغائب حاضراً ، ثم قال لنفسه بعد أن عرض عليها الصورتين : تخيرى واعملى !!.

وهناك طريقة أُخرى كان الأحنف بن قيس يصطنعها ليُذكِّر نفسه بنار الآخرة وعذابها . كان يجىء إلى المصباح فيضع أصبعه فيه حتى يحس بالنار ثم يقول لنفسه : يا حُنيف ، ما حملكَ على ما صنعت يوم كذا ؟ ما حملكَ على ما صنعتَ يوم كذا ؟

ومن أساليب محاسبة النفس ما رُوِىَ عن توبة بن الصمة وكان محاسباً لنفسه أنه حاسَبها يوماً ، فإذا هو ابن ستين سنة فحسب أيامها ، فإذا هى أحد وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم ، فصرخ وقال : يا ويلتى ؟ ألقى الله بأحد وعشرين ألف ذنب ! فكيف وفى كل يوم عشرة آلاف ذنب !

. ومن الأمثلة لأحكام العقوبة التى يصدرها الضمير المؤمن ، فيتقبلها ويُسرع إلى تنفيذها ، ما رُوِىَ عن أبى طلحة الأنصارى رضى الله عنه أنه اشتغل قلبه فى الصلاة بطائر فى حائطه (بستانه) فتصدَّق بالحائط كفارة لذلك .

● **أثر الضمير الدينى فى مجالات الحياة :**

هذا هو أثر الإيمان فى تكوين ضمير المؤمن وتغذيته وتعهده ، وهذا الضمير الدينى هو الركيزة الأُولى للأخلاق ، وهو الأساس الأصيل لحياة اجتماعية فاضلة ، حلم بها الفلاسفة صوراً فى الخيال تُرسم ، أو نماذج على الورق تُكتب ، وجعلها الإيمان واقعاً يمشى على الأرض بين الناس .

وأمامنا أمثلة لذلك فى مجالات شتَّى :

● **فى أداء الحقوق المالية :**

تفرض القوانين التى وضعها البشر لأنفسهم ، أو يضعها لهم جماعة منهم

ضرائب على أهل المال منهم لقاء ما تُقدِّم لهم الدولة من خدمات ، وأداءً لما يجب عليهم من مشاركة فى أعباء الأُمة وواجباتها ، ولكنا نجدهم يتهربون من أدائها بكل وسيلة ، ويتحايلون على التخلص من التزامها بكل سبيل !!

وازن هذا بالزكاة فى الإسلام ، تلك الضريبة التى فرضها الإيمان عبادة على المسلم ، يَتقرَّب بها إلى مولاه ، ويُقدمها طيب النفس ، راضى القلب ، داعياً ربه : (اللَّهم اجعلها مغنماً ولا تجعلها مغرماً) محاولاً أن تكون من أطيب ما عنده وأفضله ، يُحاسب نفسه قبل حساب جباتها (العاملين عليها) وقد يبذل أكثر مما يُطلب منه موقناً أن ما عنده ينفد وما عند الله باق .

عن أُبى بن كعب رضى الله عنه قال : بعثنى النبى ﷺ مُصدِّقاً (أى جابياً للزكاة) فمررتُ برجل ، فلما جمع لى ماله ـ من الأنعام ـ لم أجد عليه فيه إلا ابنة مخاض . فقلت له : أدِّ ابنة مخاض ، فإنها صدقتك .. فقال : ذاك ما لا لبن فيه ولا ظهر (أى لا يقدر أن يُركب ويُحمل عليه) ولكن هذه ناقة فتية عظيمة سمينة فخذها . فقلت له : ما أنا بآخذ ما لم أُومر به ، وهذا رسول الله ﷺ منك قريب ، فإن أحببتَ أن تأتيه فتعرض عليه ما عرضتَ علىَّ فافعل .. فإن قبله منك قبلته ، وإن ردَّه عليك رددته . قال : فإنى فاعل . فخرج معى ، وخرج بالناقة التى عرض علىَّ حتى قدمنا على رسول الله ﷺ فقال له : يا نبى الله ؛ أتانى رسولك ليأخذ منى صدقة مالى وايم الله ما قام فى مالى رسول الله و لا رسوله قط قبله ، فجمعتُ له مالى ، فزعم أن ما علىَّ فيه ابنة مخاض ، وذاك ما لا لبن فيه ولا ظهر ، وقد عرضتُ عليه ناقة فتية عظيمة ليأخذها فأبى علىّ . وها هى ذى .. قد جئتُكَ بها يا رسول الله . خذها ، فقال له رسول الله ﷺ : « ذاك الذى عليك ، فإن تطوَّعتَ بخيرٍ آجرك الله فيه وقبلناه منك » . قال فها هى ذى يا رسول الله قد جئتُكَ بها فخذها . قال : فأمر رسول الله ﷺ بقبضها .. ودعا فى ماله بالبركة .

(رواه أبو داوود)

● فى الاعتراف بالجريمة وتحمل العقوبة :

ويفرض القانون عقوبات مادية رادعة على مَن يرتكبون الجرائم ، ولكن المخالفين للقانون يحاولون الفرار من قبضته ، والتفلت من دائرة سلطانه ، وفى غفلة

من القانون والرقباء عليه ، يَقدمون على أعمالهم ، مستخفين عن الأعين ، أو ظاهرين وقد ألبسوا عملهم الآثم ثوب القانون ، أو مستندين إلى ذى سلطان يشفع لهم أو يحمى ظهرهم ، إلى آخر ما نعرف عن صور التفلت من يد القانون .

فإذا نظرنا إلى ما يفرضه قانون الإيمان على صاحبه وجدناه صورة أُخرى ، ومنطقاً آخر ، وجدنا المؤمن إذا زلَّت قدمه فاقترف جُرماً ـ وهو بطبيعته بَشر يُخطئ ويصيب ـ سرعان ما يستيقظ ضميره ، ويدفعه دفعاً حتى يذهب إلى يد العدالة ، فيعترف بالجريمة ويطلب العقوبة لنفسه تطهيراً من آثام الإثم ، وأوزار العصيان ، ورجاءً فى أن تكون كفَّارة له عن ذنبه ، وشفيعاً له إلى ربه ، لا يمنعه من الاعتراف أن فيه جَلْدَ ظهره أو قطع يده أو إزهاق روحه .

فهذا رجل عربى ـ هو ماعز بن مالك ـ يأتى رسول الله ﷺ فيقول : يا رسول الله ؛ ظلمتُ نفسى وزنيتُ ، وإنى أُريد أن تُطَهِّرنى ، فيقول له : «لعلك لامست؟ لعلك قبَّلت؟ لعلك فاخذت»؟ ويرد الرجل مرة ومرة ومرة،والرجل مُصرٌّ على الاعتراف بخطيئته ، مُصرٌّ على التطهر منها بإقامة حد الله عليه ، ولو كان الرجم بالحجر ، ويأمر الرسول أخيراً بإقامة الحد عليه ، فيتقبله صابراً محتسباً ، راغباً فى عفو الله ومغفرته .

وهذه امرأة أعرابية تُعْرَف بالغامدية ، تزنى ويضطرب فى أحشائها جنين من الزنا ، فيأبى عليها ضميرها المؤمن ـ وقد ارتكبت الفاحشة سراً ـ إلا أن تتطهر منها جهارا .

وجاءت رسول الله تقول له : إنى قد زنيتُ فطَهِّرنى !! فيردها الرسول .. فتأتى فى الغد فتقول : يا رسول الله .. لِمَ تردنى ؟ لعلك أن تردنى كما رددت ماعزاً .. فوالله إنى لحُبلى !! فيقول لها : «إما لا .. فاذهبى حتى تلدى».

وتذهب المرأة وتنتظر الوضع ، وتمضى عليها الأيام والأشهر دون أن تخبو جذوة ضميرها ، فما أن ولدت حتى أتت بالصبى فى خرقة ، وقالت للرسول : ها قد ولدته . قال لها : «فاذهبى حتى تفطميه».

وتعود المرأة إلى دارها ترضع ولدها ، وتمضى مدة الرضاع ـ وهى فى العادة حولان كاملان ـ أربعة وعشرون شهراً لم يستطع اختلاف اللَّيل والنهار فيها أن يُنسى المرأة ما ارتكبت من خطيئة .

وبغير إعلان من محكمة ، ولا تنبيه من حاكم ، ولا حراسة من شرطى ، ترجع المرأة إلى رسول الله طائعة مختارة ، لتلقى مصيرها الذى رضيته لنفسها فتُقدِّم إليه الصبى وفى يده كسرة من الخبز ، وتقول : هذا يا نبى الله قد فطمته ، وقد أكل الطعام . .

ولم يجد النبى بُدّاً بعد أن أمر بها ، فحُفِر لها إلى صدرها ، وأمر الناس فرجموها . فأقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فنضح الدم على وجه خالد فسبَّها . . فسمع نبى الله سَبُّه إياها . . فقال : « مهلاً يا خالد ، فوالذى نفسى بيده لقد تابت توبة لو قُسِّمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم ، وهل وجدت توبة أفضل من أن جادت بنفسها لله تعالى »! . (القصة رواها مسلم) .

● **فى رعاية القوانين والأمانات** :

أصدر عمر بن الخطاب قانوناً يمنع غش اللَّبن يُخلط بالماء . . ولكن هل تستطيع عين القانون أن ترى كل مخالف ؟ وهل تستطيع يده أن تقبض على كل غاش ؟

القانون أعجز من هذا .

الإيمان هو الذى يعمل عمله فى هذا المجال .

وهنا تحكى القصة المشهورة حكاية الأُم وابنتها : الأم تريد أن تخلط اللَّبن طمعاً فى زيادة الربح ، والبنت تُذكِّرها بمنع أمير المؤمنين .

الأُم تقول : أين نحن من أمير المؤمنين ؟! إنه لا يرانا . .وترد الابنة بالجواب المُفْحِم : إن كان أمير المؤمنين لا يرانا فَربُّ أمير المؤمنين يرانا !!

وروى الطبرى لما هبط المسلمون (المدائن) وجمعوا الأقباض ، أقبل رجل بحُقٍّ معه . فدفعه إلى صاحب الأقباض فقال الذين معه : ما رأينا مثل هذا قط ، ما يعدله ما عندنا ولا يقاربه !! فقالوا له : أخذتَ شيئاً ؟ فقال : أما والله لولا الله ما أتيتكم به . فعرفوا أن للرجل شأنا فقالوا : من أنت؟ فقال : لا والله لا أُخبركم لتحمدونى ، ولا غيركم ليقرظونى ، ولكنى أحمد الله وأرضى بثوابه ، فأتبعوه رجلاً حتى انتهى إلى أصحابه : فسأل عنه .. فإذا هو (عامر بن عبد قيس) .

وقد نُقِلَ إلى عمر كثير من الغنائم التى يخف حملها ويغلو ثمنها ، أدَّاها بأنفسهم جنود مخلصون لوجه الله لا يريدون جزاءً ولا شكوراً ، فقال فى إعجاب وتقدير : إن قوماً أدُّوا هذا لأُمناء !

وقال عبد الله بن دينار : خرجتُ مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى مكة فعرسنا فى بعض الطريق فانحدر بنا راع من الجبل ، فقال له : يا راعى ؛ بعنى شاة من هذه الغنم . فقال : إنى مملوك . فقال ـ اختباراً له ـ قل لسيدك أكلها الذئب . فقال الراعى : فأين الله ؟

فبكى عمر رضى الله عنه ثم غدا مع المملوك ، فاشتراه من مولاه ، وأعتقه وقال : أعتقتك فى الدنيا هذه الكلمة وأرجو أن تعتقك فى الآخرة .

● **فى السياسة والحكم :**

أما فى مجال السياسة والحكم ـ وهو المجال الذى يُغرى بالحيف والغرور والطغيان ـ فقد قصَّ علينا التاريخ أمثلة شامخة لخلفائنا المهديين ، فى العدالة الكاملة التى لا تتحيز لقريب أو تحيف على عدو ، وفى المساواة القانونية التى لا تعرف الفوارق ، وفى الزهد الذى يعرض عن الدنيا وفى يده البيضاء والصفراء ، والقوة والسلطان . لقد كان (الضمير) المؤمن هو الذى يحكم ويسود ، فسادت الفضيلة وسادت العدالة والمساواة ، ذلك الضمير الذى جعل خليفة كعمر يدخل حائطاً لقضاء حاجة فيسمعه أنس يقول ـ وبينهما جدار الحائط ـ : عمر بن الخطاب أمير المؤمنين !! بَخٍ بَخٍ !! والله لتتقين الله بُنَىِ الخطاب ، أو ليعذبنك !!

هذا الضمير هو الذى جعله فى عام المجاعة المعروف بـ (عام الرمادة) لا يأكل إلا الخبز والزيت حتى اسوَّد جلده ، فيكلمه بعض الصحابة فى ذلك ، فيقول : بئس الوالى أنا إن شبعتُ والناس جياع !

ورأى يوماً فتاة صغيرة تتمايل من الجوع . فقال : مَن هذه ؟ فقال ابنه عبد الله : هذه ابنتى . قال : فما بالها ؟ . قال : إنك تحبس عنا ما فى يدك فيُصيبنا ما ترى . فقال : يا عبد الله ، بينى وبينكم كتاب الله ، والله ما أعطيكم إلا ما فرض الله لكم . أتريدنى أن أعطيكم ما ليس لكم فأعودُ خائناً ؟!

قال ابن كثير[1] ـ بعد أن ذكر أعمال عمر الجليلة وفتوحاته العظيمة : (وكان متواضعاً فى الله ، خشن العيش ، خشن الطعام ، شديداً فى ذات الله ، يُرقِّع الثوب بالأديم (أى الجلد) ، ويحمل القربة على كتفيه ، مع عظم هيبته ، ويركب الحمار عرياً ، والبعير مخطوماً باللِّيف ، وكان قليل الضحك لا يمازح أحداً، وكان نقش خاتمه : « كفى بالموت واعظاً يا عمر ») .

وهذا أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب يقول له جعد بن هُبيرة : يا أمير المؤمنين؛ يأتيك الرجلان ، أنت أحبُّ إلى أحدهما من أهله وماله ، والآخر لو يستطيع أن يذبحك لذبحك ، فتقضى لهذا على هذا ! . قال فلهزه علىّ وقال : إن هذا شىء لو كان لى لفعلت ، ولكن إنما ذاك شىء لله . ويحدثنا الشعبى أن علياً رضى الله عنه ضاعت منه درع فوجدها عند نصرانى . فأقبل به إلى القاضى (شُريح) يخاصمه ، وقال علىٌّ : هذه الدرع درعى ولم أبع ولم أهب . فقال شُريح للنصرانى : ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين ؟ فقال النصرانى : ما الدرع إلا درعى وما أمير المؤمنين عندى بكاذب ! فالتفت شُريح إلى علىٍّ وقال : يا أمير المؤمنين ؛ ألكَ بيِّنة ؟ فابتسم علىٌّ وقال : أصاب شُريح ، ما لى بيّنة . فقضى بالدرع للنصرانى ، فأخذها ومشى خُطوات ثم رجع ، فقال : أما أنا فأشهد أن هذه أحكام الأنبياء ، أمير المؤمنين يدينني إلى قاضيه فيقتضى فيقضى عليه ، أشهد أن لا إلَه

---

(١) فى كتاب « البداية والنهاية » .

إلاَّ الله وأن محمداً عبده ورسوله . الدرع ـ والله ـ درعك يا أمير المؤمنين ، سقطت منك وأنت منطلق إلى صفين . قال : أما إذ أسلمت فهى لك .

كان الضمير المؤمن هو الذى يحكم الخليفة والقاضى ، فلم يحاول الخليفة المؤمن أن يتخذ القوة لأخذ حقه أو يُؤثِّر على القاضى ليحكم فى صالحه ، ولم يحاول القاضى المؤمن أن يطوِّع النصوص إرضاءً لأميره ـ رغم ما يعتقد من صدقه ـ فالشرع سيد على الجميع : الأمير والسوقة ، والمسلم والنصرانى سواء .

وكان علىٌّ رضى الله عنه يلبس القميص ـ وقد اشتراه بثلاثة دراهم ـ ويقول الحمد لله الذى رزقنى من الرياش ما أتجمل به فى الناس وأُوارى عَورتى !!

ومفتاح هذا الزهد وتلك العدالة ما قاله بعضهم : كان علىٌّ يمشى فى الأسواق وحده وهو خليفة ، يُرشد الضال ، ويعين الضعيف ، ويمر بالبياع والبقال ، فيفتح عليه القرآن ، ويقرأ : ﴿ **تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُواً فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ [القصص : ٨٣] ثم يقول : نزلت هذه الآية فى أهل العدل والتواضع من الولاة وأهل القُدرة من الناس .

الرغبة فى الدار الآخرة ، وحُسن العاقبة عند الله ، وهى السر الكامن وراء هذه المُثُل الرفيعة ، والأعمال الكبار .

وهذا عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموى الراشد الذى يقول فيه مالك ابن دينار : يقولون : مالك زاهد ! . . أىُّ زهد عندى ؟ إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز، أتته الدنيا فاغرة فاها ، فتركها جُملة !

أجل فلم يكن له فى خلافته سوى قميص واحد يلبسه ، فكان إذا غسلوه جلس فى المنزل حتى ييبس . وهو الذى نشأ وشَبَّ فى أحضان النعيم .

ودخل على امرأته يوماً فسألها أن تُقرضه درهماً يشترى به عنباً ، فلم يجد عندها شيئاً . . فقالت له : أنت أمير المؤمنين وليس فى خزائنك ما تشترى به عنباً؟! فقال : هذا أيسر من معالجة الأغلال والأنكال غداً فى نار جهنم .

وقد اجتهد فى مدة ولايته ـ مع قصرها ـ حتى رد المظالم ، وصرف إلى كل

ذى حق حقه ، وكان مناديه ينادى فى كل يوم : أين الغارمون ؟ أين الراغبون فى الزواج ؟ أين اليتامى ؟ أين المساكين ؟ حتى أغنى كُلاًّ من هؤلاء .

ومع عدله وزُهده ، ورده للمظالم ، وشدته على نفسه وأقاربه كان يُناجى ربه فيقول : اللَّهم إن عمر ليس أهلاً أن تناله رحمتك ، ولكن رحمتك أهل أن تنال عمر .

وأثنى عليه رجل فقال له : جزاكَ الله عن الإسلام خيراً يا أمير المؤمنين . فقال : بل جزى الله الإسلام عنى خيراً [1] .

لقد رد الحق إلى نصابه ، فما هو إلا خريج مدرسة الإسلام ، وصياغة مصنع الإيمان .

لقد أطلنا فى سرد هذه الأمثلة ، لأن الحكم الذى لا يقوم عليه رجال مؤمنون، والسياسة التى لا يرعاها ضمير مؤمن إنما هى كما قال الشاعر :

كمثل الطبل يُسمع من بعيد وباطنه من الخيرات خال

● **فى التجارة والمعاملة :**

يروى الإمام الغزالى عن محمد بن المنكدر أنه كان له شُقق بعضها بخمسة دراهم ، وبعضها بعشرة ، فباع غلامه فى غيبته لأعرابى شُقة من الخمسيات بعشرة، فلما عاد ابن المنكدر وعرف ، لم يزل يطلب ذلك الأعرابى المشترى طول النهار حتى وجده ، فقال له : إن الغلام قد غلط فباعك ما يساوى خمسة بعشرة . فقال الأعرابى : يا هذا ، قد رضيتُ فقال : وإن رضيتَ . فإنَّا لا نرضى لك إلا ما نرضاه لأنفسنا ، فاختر إحدى ثلاث خصال ، إما أن تأخذ شُقة من العشريات بدراهمك ، وإما أن نرد عليك خمسة ، وإما أن ترد شُقتنا وتأخذ دراهمك . فرد عليه خمسة ، وانصرف الأعرابى [2] .

---

(١) هذه الأخبار عن عمر بن عبد العزيز ذكرها ابن كثير فى « البداية والنهاية » جـ ٩ ص١٩٢ وما بعدها .

(٢) الإحياء : ربع العادات ، كتاب الكسب ص ٧٢ – ٧٣ .

ويروى الغزالى أيضاً أنه كان عند يونس بن عبيد حُلَل مختلفة الأثمان ، فمر إلى الصلاة وخَلَفَ ابن أخيه فى الدكان ، فجاء أعرابى وطلب حُلَّة بأربعمائة فعرض عليه من حُلَل المائتين ، فاستحسنها ورضيها ، فاشتراها ـ أى بأربعمائة ـ فمشى بها وهى على يده فاستقبله يونس . فعرف حُلَّته . فقال للأعرابى : بكم اشتريت ؟ فقال : بأربعمائة . فقال : لا تساوى أكثر من مائتين فارجع حتى تردها : فقال : هذه تساوى فى بلدنا خمسمائة وأنا أرتضيها . فقال له يونس : انصرف معى فإن النصح فى الدين خير من الدنيا بما فيها . ثم ردَّه إلى الدكان ورد عليه مائتى درهم . وخاصم ابن أخيه فى ذلك وقاتله . وقال : أما استحييتَ ؟ أما اتقيتَ الله ؟ تربح مثل الثمن ، وتترك النصح للمسلمين ؟! فقال : والله ما أخذها إلا وهو راض بها . قال : فهلا رضيتَ له بما ترضاه لنفسك !! (١).

إن التجارة عادة يغلب عليها حب الكسب إلى حد الجشع حيناً ، والخيانة والظلم أحياناً . فإذا غلب الإيمان هان المال فى سبيل المثل الأعلى ومكارم الأخلاق .

وليست هذه النماذج خاصة بالقرون الأُولى وعهد السَلَف الصالح من المسلمين ، فلا زال للإيمان أثره إلى اليوم فى كل بلد من ديار الإسلام ، وإن اختلف الكم والدرجة عما كانا عليه من قبل .

يذكر الأستاذ أبو الحسن الندوى بعض ذلك فى مقال له(٢) يقول :

(حدَّثنى بعض الثِّقات المعمرين أدركوا عهد الأشراف فى الحجاز ، أن تجار مكة كانوا فى ذلك العهد على جانب عظيم من المواساة لزملائهم ، والنظر فى مصالحهم والإخلاص والإيثار لهم ، قال : كان بعض التجار إذا أتاه زبون فى آخر النهار وقد باع ما يكفيه لقوت يومه وما حدَّده من الربح والوارد ، ولم يكن زميله الجار سعيد الحظ فى ذلك اليوم ، قال له فى لطف وهدوء : دونك هذا الدكان الذى هو بجوارى ! تجد عنده ما تجده عندى ، وقد لاحظتُ قلة الزبائن عنده هذا اليوم ، فهو أحق بأن تشترى منه) .

---

(١) الإحياء : ربع العادات ، كتاب الكسب ص ٧٢ – ٧٣ .

(٢) نشرت فى مجلة « البعث الإسلامى » .

ويتحدث الأستاذ محمد أسد [١] النمساوى عن مدينة إسلامية عربية كبيرة هى (دمشق) فيذكر انطباعاته كما يلى :

(وقفتُ على ذلك الاستقرار الروحى فى حياة سكانها ، إن أمنهم الباطنى كان يمكن أن يُرى فى الطريقة التى كان أصحاب الدكاكين يُعامِل بها بعضهم بعضاً، أولئك التجار فى الحوانيت الصغيرة ، أولئك الذين لا ينون ينادون على المارة . أولئك كانوا يبدون وكأنما ليس فيهم أيما قدر من الخوف ، والحسد ، حتى إن صاحب دكان منهم ليترك دكانه فى عُهدة جاره ومُزاحمه ، كلما دعته حاجة إلى التغيب بعض الوقت ، وما أكثر ما رأيتُ زبوناً يقف أمام دكان غاب صاحبه عنه يتساءل فيما بينه وبين نفسه : ما إذا كان ينتظر عودة البائع ، أو ينتقل إلى الدكان المجاور ، فيتقدم التاجر المجاور دائماً ـ للتاجر المزاحم ـ ويسأل الزبون عن حاجته ويبيعه ما يطلب من البضاعة ـ لا بضاعته هو بل بضاعة جاره الغائب ـ ويترك له الثمن على مقعده . أين فى أوربا يستطيع المرء أن يشاهد مثل هذه الصفقة) [٢] .

● فى المواساة والإيثار :

ويتجلى أثر هذا الضمير الذى صنعه الإيمان بالله واليوم الآخر فى مجال المواساة والإيثار بالمال والنفس . فكان الرجل يحب لأخيه ما يحب لنفسه . ويبذل له من ذات يده ، ومن جهده ووقته ما يبذله لأعز بنيه عليه ، وأحب أهليه إليه . وقد يرتقى الإيمان بأحدهم ، فيؤثر أخاه على نفسه . فيجود له بالشىء ، وهو أحوج ما يكون إليه ، كل ذلك ولا قانون يُلزمه ، ولا حكومة تُطالبه ، ولا أجهزة تُراقبه ، ولا عقوبة تُسلَّط عليه ، وإنما هو دافع الإيمان بين جنبيه ، يحفزه على عمل الخير ، والتطوع بالبر ، ابتغاء ما عند الله وما عنده خير وأبقى .

روى مالك فى موطئه أنه بلغه عن عائشة رضى الله عنها أن مسكيناً سألها

---

(١) هو « ليوبولد فايس » الذى أسلم بعد أن أقام فى بلاد المسلمين مدة طويلة ، ودرس الإسلام بلغته وألف كتباً منها : « الإسلام على مفترق الطرق » و « الطريق إلى مكة » .

(٢) الطريق إلى مكة ص ١٧ باختصار .

وهى صائمة وليس فى بيتها إلا رغيف ، فأمرت جارية لها أن تُعطيه الرغيف فقالت الجارية : ليس لك ما تُفطرين ! فقالت : (أعطيه إياه) ففعلت ، وربما يظن بعض الناس أنها إنما آثرت بالرغيف لهوانه عليها ، فليسمعوا هذه القصة التى رواها المؤرخون والمُحدِّثون :

بعث معاوية بن أبى سفيان بثمانين ألف درهم إلى عائشة ، وكانت صائمة ، وعليها ثوب خَلِق . فوزَّعت هذا المال من ساعتها على الفقراء والمساكين ولم تُبق منه شيئاً . فقالت لها خادمتها : يا أُم المؤمنين ؛ ما استطعت أن تشترى لنا لحماً بدرهم تفطرين عليه ؟ فقالت : يا بُنية ؛ لو ذكرتينى لفعلتُ ! (١) .

إن الصائمة التى آثرت المسكين بالرغيف وليس فى بيتها ما تُفطر عليه غيره ، آثرت بمئات الألوف من الدراهم دون أن تذكر بطنها الجائع ، ولا ثوبها الخَلِق .

ومثل عائشة زينب بنت جحش أُم المؤمنين ، التى كانوا يلقبونها بـ (أُم المساكين) حدَّثت برزة بنت باتع أنه لما خرج العطاء أرسل إليها عمر نصيبها منه ، فلما دخل عليها حامل المال ، قالت : غفر الله لعمر ! غيرى من أخواتى كان أقوى على قسم هذا منى ، فقالوا : هذا كله لك . قالت : سبحان الله . واستترت منه بثوب ثم قالت : صُبُّوه واطرحوا عليه ثوباً .

قالت راوية القصة : ثم قالت لى : أدخلى يدك فاقبضى منه قبضة فاذهبى بها إلى بنى فلان وفلان ـ من أهل رحمها وأيتامها ـ فقسَّمته حتى بقيت منه بقية تحت الثوب . فقالت لها برزة بنت باتع : غفر الله لك يا أُم المؤمنين . والله لقد كان لنا فى هذا حق ، فقالت : فلكم ما تحت الثوب .. قالت : فكشفنا الثوب فوجدنا خمسة وثمانين درهماً (٢) .

وأخذ عمر بن الخطاب أربعمائة دينار ، فجعلها فى صُرَّة ، ثم قال لغلامه : اذهب به إلى أبى عُبيدة بن الجرَّاح ، ثم تَلَهَ (تشاغل) فى البيت ساعة حتى تنظر

---

(١) رواه الحاكم فى المستدرك .

(٢) طبقات ابن سعد جـ٣ ص ٢٠١ .

ما يصنع . فذهب بها الغلام إليه . . فقال : يقول لك أمير المؤمنين : اجعل هذه فى بعض حاجتك ، فقال : وصله الله ورحمه ، ثم قال : تعالَىْ يا جارية ، اذهبى بهذه السبعة إلى فلان ، وبهذه الخمسة إلى فلان ، وبهذه الخمسة إلى فلان حتى أنفدها، ورجع الغلام إلى عمر فأخبره ، فوجده قد أعد مثلها لمعاذ بن جبل ، فقال : اذهب بها إلى معاذ وتَلَهَ (تشاغل) فى البيت حتى تنظر ما يصنع ، فذهب بها إليه ، فقال : يقول لك أمير المؤمنين : اجعل هذه فى بعض حاجتك . فقال : رحمه الله ووصله . تعالَىْ يا جارية ، اذهبى إلى بيت فلان بكذا ، اذهبى إلى بيت فلان بكذا، اذهبى إلى بيت فلان بكذا ، فاطلعت امرأة هى امرأة معاذ وقالت : نحن والله مساكين ، فأعطنا ، فلم يبق فى الخرقة إلا ديناران فرمى بهما إليها . ورجع الغلام إلى عمر فأخبره : فسُر بذلك فقال إنهم إخوة بعضهم من بعض !! (١).

وروى ابن سعد أن عبد الرحمن بن عوف باع لعثمان بن عفَّان أرضاً له بأربعين ألف دينار ، فقسَّم ذلك فى الفقراء من أقاربه ، وفى ذى الحاجة من الناس ، وفى أُمهات المؤمنين (٢).

ورُوِىَ أن عيراً (قافلة تجارية) قدمت لعبد الرحمن ، فكان لأهل المدينة يومئذ رجة ، فقالت عائشة : ما هذا ؟ قيل لها : هذه عير عبد الرحمن بن عوف قدمت ، فقالت عائشة : أما إنى سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « كأنى بعبد الرحمن بن عوف على الصراط ، يميل به مرة ويستقيم أُخرى ، حتى يفلت ولم يكده » . . فبلغ ذلك عبد الرحمن فقال : هى وما عليها صدقة .

قال راوى القصة : وكان عليها أفضل منها قال : وهى يومئذ خمسمائة راحلة . . بهذه السهولة جاد الرجل بكل هذا المال وكل هذه التجارة التى ارتجت لها المدينة وقال كلمته : هى وما عليها صدقة !

وروى البخارى ومسلم عن أنس قال : كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير .

(٢) طبقات ابن سعد جـ ٢ ص ١٢ – ١٣ .

مالاً من نخل . وكان أحب أمواله إليه بيرحاء (اسم حديقة له) وكانت مستقبلة المسجد ، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب ، قال أنس : فلما نزلت هذه الآية : ﴿ **لَن تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ** ﴾ [آل عمران : ٩٢] .. قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ؛ إن الله تبارك وتعالى يقول : ﴿ **لَن تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ** ﴾ وإن أحب أموالي إليَّ بيرحاء، وإنها صدقة . أرجو برها وذخرها عند الله ، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله . فقال رسول الله ﷺ : « بَخٍ بَخٍ .. ذاك مال رابح ! ذاك مال رابح » .

وذكر الغزالي في الإحياء عن ابن عمر قال : أُهدي إلى رجل من أصحاب رسول الله ﷺ رأس شاة فقال : فلان أحوج إليه مني ، فبعث به إليه . فبعث به هو أيضاً إلى آخر يراه أحوج منه ، فلم يزل يبعث به واحد إلى الآخر حتى رجع إلى الأول ، بعد أن تداوله سبعة !

ولا يحسبن القارئ أن هذه كانت حوادث فردية ، لا تُصوِّر حقيقة المجتمع كله ، فإن أمثال هذه المواقف كثيرة جداً ، وهي تُصوِّر بحق روح المجتمع واتجاهه وفلسفته ونظرته إلى المال والحياة .

روى البخاري في الأدب المفرد عن ابن عمر قال : (لقد أتى علينا زمان ـ أو قال : حين ـ وما أحد أحق بديناره ودرهمه من أخيه المسلم) .

وحسبنا أن القرآن سَجَّل للأنصار في المدينة ـ وهم جمهور المجتمع الإسلامي بها ـ هذه الصور الراقية من صور الإخاء والمواساة والإيثار فقال : ﴿ **وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ** ﴾ [الحشر : ٩] ..

● **اعتراضات وشبهات :**

لقد تبيَّن لنا ـ فيما سبق ـ أثر الدين والإيمان في تكوين الأخلاق الفاضلة وتربية الضمائر اليقظة . وضربنا لذلك أمثلة من نماذج بشرية صنعها الإيمان .

فإذا هى فضائل مُجسَّدة ، تمشى على الأرض .

والأمر لا يحتاج إلى أمثلة ، فأثر الدين فى هداية الإنسان وصنع الحضارة أثر لا يُنكر ، وبحق ما قاله أحد المؤرخين : لا ريب أن الدين كان أعظم قوة فى التاريخ هذَّبت توحش الإنسان .

وذهب بنيامين كيد (kad) إلى أن جميع الحضارت قامت على أساس الجزاءات الأخروية التى قدَّمها الدين للأخلاق .

وربما اعترض بعض الناس على صلة الدين بالأخلاق بأن هناك بعض الملحدين يتقيَّدون بالفضيلة والخُلُق وهم لا يؤمنون بالدين ، ويرد على ذلك « تارد » أنه يعتقد أن الحياة الشريفة عند بعض الملحدين ترجع إلى الأثر المستمر لتربيتهم الدينية ، وهو ما سماه كارليل « النور اللاحق » للمسيحية إذ هو يتحدث عن ملحدى الغرب من المسيحيين ـ وهذا هو الذى أشار إليه « رينان » حين كتب عبارته المشهورة : « إننا نعيش على ظل لظل ـ يقصد ظل الدين ـ فعلى أى شىء سيعيش الناس بعدنا » ؟ ـ كيف يتحكمون فى شهواتهم ودوافعهم إلى الكذب والسرقة والقتل حين يختفى حتى هذا « النور اللاحق » للعقيدة على فراش الموت ؟

وقد كتب دستويفسكى أعظم قصصى فى العالَم ، ليبين كيف أصبح الإنسان « متلبساً » بالشياطين حين هجر الله (١) .

وليس هذا ما يُقرِّره المؤمنون بالدين فحسب ، بل هذا ما يعترف به المنصفون من المتدينين والمنكرين على السواء .

فمن الملحدين من يرى الدين خرافة ، ولكن الحياة لا تستقيم بدونه ، ويرى الأخلاق لا غنى لها عن هذا الوهم فى رأيه ، ويقول آخر : « لو لم يكن الله موجوداً لوجب علينا أن نخترعه » ، وذلك لما يرى من أثر الإيمان بهذا الإله فى النفس وفى الحياة . ويقول الأديب الفرنسى الشهير « فولتير » ساخراً : لِمَ تُشكِّكون فى الله ، ولولاه لخانتنى زوجتى ، وسرقنى خادمى ؟

---

(١) من كتاب « مناهج الفلسفة » لول ديورانت ج ٢ ص٢٧٦ .

ويقول ثالث : إنى لا أعتقد فى وجود جهنم ، ولكن أعتقد أن الفكرة عنها قد باعدت بين كثير من الناس وبين ارتكاب الشر . والذى أراه أن الشاب حين يكتشف أن جهنم لا وجود لها فإنه لا يحفل بشىء ، ووظيفة الأخلاق أن تمثل الكل فى مقابل الجزء ، والمستقبل فى مقابل الحاضر ، وهذا بالضبط ما يسعى الدين إلى عمله ، الدين ـ كما يقول هوفدنج ـ « هو الاحتفاظ بالقيم ، وبغير الجزاءات الدينية تصبح الأخلاق مجرد تقدير ، فيختفى الإحساس بالواجب ، ويقف كل شاب جميع ذكائه وعلمه على التحايل على الوصايا » .

● **الخوف من الله واليوم الآخر وأثره فى التربية :**

هذه بعض شهادات الملحدين فى أثر الدين فى الخُلُق والسلوك . ولكن قوما مع هذا يُشيعون أن طريقة الدين فى التخويف من الله ومن الحساب فى الآخرة تنافى تربية الشخصية الحرة النامية المستقلة !

ونقول لهؤلاء ـ فضلاً عما تقدَّم ـ إن تجريد التربية من عنصر الخوف تجريداً تاماً مطلقاً ، إنما هو ادعاء مزعوم ، وخيال موهوم ، وإنكار لواقع الإنسان الذى خلقه الله يرجو ويخاف ، ويأمل ويخشى ، وإذا كان الخوف أمراً لا بد منه فليكن من مالك المُلك وخالق الخلق وصاحب الأمر كله ، ولنُغلق منافذ الخوف جميعها بعد ذلك ، فلا خوف من مخلوق صغر أو كبر ، إلا ما اقتضته الجبلة .

وذلك فى الحق هو منبع الشجاعة ، ومصدر القوة ، وهو شأن المؤمنين ﴿ **الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللَّهَ** ﴾ [الأحزاب:٣٩]

﴿ **يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ** ﴾ [المائدة:٥٤] ، ﴿ **إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ [آل عمران:١٧٥] ، ﴿ **فَلاَ تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً** ﴾ [المائدة:٤٤] . .

وفى الآثار : « مَن خاف الله خوَّف الله منه كل شيء ، ومن لم يخف الله خوَّفه الله من كل شيء » .

على أن خوف المؤمن من ربه إنما هو خوف من قاض عادل أن يُنزل به العقوبة على جُرمه ، لا خوف من ملك غشوم يأخذ البرىء بذنب المسيء . إنه أشبه بخوف الابن من غضبة أبيه عليه إذا انحرف عن سواء الطريق وهو مع هذا خوف مشوب بالرجاء فى عفو الله ، والأمل فى سعة رحمته . على سُنَّة أولئك الذين وصفهم القرآن بقوله : ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ** ﴾ [الإسراء:٥٧] ، ﴿ **أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ** ﴾ [الزمر:٩] ..

والقرآن يُرشد دائماً إلى الحد الوَسط بين الخوف والرجاء ، فلا ينبغى أن ينتهى الخوف إلى اليأس من روح الله ، كما لا ينبغى أن يصل به الرجاء إلى الأمن من مكر الله ﴿ **فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ** ﴾ [الأعراف:٩٩] ، كما ﴿ **لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ** ﴾ [يوسف:٨٧] ..

وصفات الله تعالى فى القرآن من شأنها أن تؤدى إلى هذا التوازن فى نفس المؤمن ﴿ **غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ** ﴾ [غافر:٣] .. ﴿ **اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [المائدة:٩٨] .. ﴿ **نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ** ﴾ [الحجر:٤٩-٥٠] ..

فكيف يُعَد مثل هذا الخوف منافياً للتربية المثالية ، ومُعوِّقاً لنمو الشخصية ؟

● **الدكتور « هنرى لنك » يرد على خصوم التربية الدينية :**

إننا نكل تفصيل الرد على هؤلاء المُشنِّعين على الدين وطريقته فى التربية ، إلى الدكتور « هنرى لنك » الطبيب النفسى الأمريكى ، صاحب كتاب « العودة إلى الإيمان » . إنه يُخَطِّئ النظريات التى أشاعتها بعض المدارس النفسية الحديثة ، فيقول :

« إن تربية الأطفال لمن أشق الواجبات وأخطرها وأدقها ، ومشاكلها شديدة التعقيد والعُسر ، وهى بعد ذلك ذات أوجه متناقضة عند حلها يكون معها الآباء فى مسيس الحاجة إلى أية معونة خارجية ، ومهما بلغت درجة تواضعها وبساطتها .

وقد كان طبيعياً : بعد أن استغنى الآباء المستنيرون عن المعتقدات الدينية ، وضربوا بها عرض الحائط ، أن يولوا وجوههم شطر مصدر جديد من مصادر المعونة. فلم يجدوا أمامهم سوى علم النفس الخاص بالأطفال ، ولكن علم نفس الأطفال لم يكن بعد ، على استعداد لتقديم المعونة لهم ، لأن الثقة بهذا العلم لم تكن قد تعدت الثقة النظرية حتى ذلك الوقت . وكان البرهان العلمى حينذاك فى مهده صغيراً برغم تعدد نظرياته .

ومن هنا بدأ الآباء يعتنقون هذه النظريات التى كان أبرزها أن العقوبة البدنية ضارة من الوجهة النفسية . وأنه من الأفضل إقناع الطفل بعمل شىء ما ، لا إرغامه بالقوة والعنف عليه ، وأنه لا يجوز كبت الطفل ، بل على العكس يجب منحه الفرصة كى يُعبِّر عن ذاته .. وأنه يجب منح الأطفال علاوة منتظمة حتى يمكنهم إدراك قيمة المال ، وأن بعض الأطفال يُولَدون بطبيعتهم عصبيين أو ذوى حساسية مرهفة ، وعليه فلا يجوز إرغامهم على أن يفعلوا ، ويعملوا ما يفعله ويعمله غيرهم .

وللأسف ، لم يظهر أى برهان علمى أو نفسى يؤيد هذه النظريات ، بل بالعكس ثبت أن كل هذه النظريات خاطئة » (١).

وهو إذ يهدم هذه الأفكار التى راجت باسم العلم يوماً ما ، يرى ضرورة العودة إلى الدين ، واتباع منهجه فى تربية الأطفال وتهذيب سلوكهم ، وتقويم أخلاقهم فليس أصلح للطفل من أن تقول له : هذا حسن ، لأن الله أمر به ، وأنه يحبه ويرضاه ويُثيب عليه بالجنة ، وبأن هذا قبيح ، لأن الله نهى عنه وأنه يبغضه ويسخطه ، ويُعاقب عليه بالنار .

ولهذا ينكر على الآباء الذين يتخلون عن هذه الطريقة المقنعة المقبولة إلى طرائق لم يثبت صحتها ولا نفعها فيقول (٢) :

« فقد سمعنا الكثيرين من الآباء يرددون : أنهم لا يبعثون بأولادهم إلى

---

(١) العودة إلى الإيمان ، ص ١١٢

(٢) المرجع السابق ص ١١٠

الدروس الدينية أو إلى محلات العبادة ، حتى يصلوا إلى السن التى يدركون عندها ما يجرى . غير أن ما يضايقهم ، ويقض مضجعهم هو هذا السؤال :

تُرى هل يكتسب هؤلاء الأولاد ذلك الشعور القوى الذى يمكنهم أن يميزوا بين الخطأ والصواب ؟ هل يؤمنون بتلك المُثل الخُلقية الواضحة التى آمنا بها منذ طفولتنا ؟

لقد قلنا فيما مضى أن بعض الأعمال خطأ والبعض الآخر صواب ، لأن الله سبحانه وتعالى قد بيَّن ذلك ، أو لأن كتابه قد أورد ذلك بمعنى آخر . وقد تكون هذه الطريقة فطرية بدائية ، غير أنه مما لا شك فيه أن تأثيرها كان طيباً فقد عرفنا على الأقل الكثير عن طيب الأفعال وخبيثها . أما الآن فإننا لا نقول لأولادنا إلا أن هذا التصرف خطأ ، وأن ذلك صواب ، لأننا نرى ذلك ، أو لأن المجتمع قد اتفق على ذلك . فهل لهذا الرد من القوة والبيان ما لسابقه ؟ وهل له مثل أثره ؟ وهل يكتسب أطفالنا القيم الخُلُقية الأساسية للحياة دون الحاجة إلى ضغط العقائد الدينية ، تلك القيم التى نتقبلها ونُسلِّم بها حتى بعد أن أصبحنا لا نُسلِّم بمصدرها الإلهى » ؟ (١) .

ويعود إلى ذلك حين يتحدث عن مقدار ما يُسديه الدين من عون للآباء فى تربية أبنائهم وتهذيبهم ، وتكوين شخصياتهم الفاضلة فيقول (٢) :

« وبدهى أن الأطفال يختلفون ، سواء بطبيعتهم أم بحسب وراثتهم ، ولكن مهما كانت هذه الطبيعة أو الوراثة طيبة جيدة ، فإنه لا يمكن غرس العادات الأساسية بغير « النظام » ، ولما كان استياء الطفل من النظام واتجاهه ، عكسياً ، كلما حاولت إنماء العادات الطيبة فيه ، أمراً لا مفر منه ، كان من الواجب استخدام كل وسيلة ذات تأثير أو ذات صفة إرغامية ، تُساعد على الإسراع فى اكتساب هذه العادات . والواقع أن معظم الآباء يكونون فى أشد الحاجة إلى الاستعانة بنصائح غيرهم ، فى أثناء عملية غرس العادات المرغوبة فى أطفالهم .

وإذا بحثنا من الناحيتين : العقلية و النفسية ، وجدنا أن أعظم مصادر هذا

---

(١) العودة إلى الإيمان ، ص ١١٠

(٢) المرجع السابق ص ١١٩

العون هو الدين . . فالإيمان بوجود الله ورسله وكتبه يهيئ للأبوين ملجأ أمينا موثوقاً به يلجأون إليه ، ويضع بين أيديهم سُلطة كبرى على أطفالهم كانوا يفتقرون إليها حتى لو لم يؤمنوا بها .

فإن هؤلاء الآباء الذين كانوا يتساءلون كيف يُنمون عادات أولادهم الخُلُقية ويُشكِّلُونها ، فى حين تنقصهم هم أنفسهم تلك التأثيرات الدينية التى كانت قد شَكَّلَت أخلاقهم من قبل ، كانوا فى الحقيقة يجابهون مشكلة لا حل لها ، فلم يُوجَد بعد ذلك البديل الكامل الذى يحل محل تلك القوة الهائلة التى يخلقها الإيمان بالخالق وبناموسه الخُلُقى الإلهى فى قلوب الناس .

فتجد الآباء الذين تحرروا من الإيمان عن طريق ثقافتهم وإعمال فكرهم حيارى متسائلين على الدوام .

إذن كيف يتسنى لأولئك الحيارَى أن يكونوا أنفسهم ملجأ لأولادهم ؟

ففى حالة عدم وجود مثل هذا الملجأ الدينى الموثوق به ، لا يسع كل أب إلا أن يفكر ويُمعن فى التفكير ، ويبحث ويُطيل البحث قبل أن يُبيِّن لطفله مدى الخطأ والصواب ، والخير والشر ، فى كل حالة من الحالات العديدة التى تصادفه يومياً ، وفى كل عادة من العادات المختلفة مما يود غرسها فى طفله .

وكلما كبر الطفل ونما ، وكلما أصبح واقعاً تحت تأثير سلطات المجتمع المتضاربة المقاصد ، المختلفة الميول والاتجاهات ـ كالمدرسة والجيران وزملائه وبلدته ـ زاد الأمر صعوبة ، وأصبح أشد تعقداً ، فالتربية واجب شاق . كما أن هذا الارتباك الكائن فى عقول معظم الآباء هذه الأيام خير شاهد على صدق هذه الحقيقة .

فالدين هو القوة الوحيدة ! التى يمكنها أن تُعين الإنسان على حل تلك المشكلات الخُلُقية والعقلية التى لا مفر منها ، والتى لا تفتأ تقض مضاجع الآباء والأبناء والمجتمع كله . ولن تجد فى هذا العالَم المضطرب ، الذى لا تمضى فيه فترة حتى يثور الناس على السُّلطة القائمة محاولين تغييرها ، غير الله وحده هو الحى الباقى الذى لا يتغير ولا يتبدل .

فذلك الطفل الذى اعتنق منذ طفولته المبكرة فكرة وجود الله بصفته المشرِّع الأعلى للخير والشر ، يكون قد اكتسب الحافز الجوهرى الذى سيدفعه حثيثاً نحو العادات الطيبة . فبدلاً من أن يقوم صرح أعماله على ما يُحبه وما لا يُحبه نراه يقوم على الصواب والخطأ ، فهو قد يرى عدم إطاعة أمه يوماً ما ، ولكنه يُدرك جيداً أنه قد أخطأ ، وهو قد لا يُحب أن يُعيد لأمه ما تبقى معه من نقود بعد أن اشترى لها مطالبها ، ولكنه يعلم تماماً أن ذلك ليس بصواب ، وهو قد لا يُحب أيضاً أن يتنازل عن أنانيته مع زملائه فى اللَّعب ، ولكنه يُرغم نفسه على أن يفعل ذلك .

وطبيعى أن مثل هذه الطريقة ليست من السهولة أو البساطة بمكان ، ولكنها سرعان ماتُنَمى فيهم عادة التميز بين الدوافع الأنانية والشخصية ، وبين العادات الطيبة ، أو الاختصار بين اللَّذة وبين الشعور بالواجب .

فمما لا شك فيه أن تغلب المرء على كسله وبلادته ، وقهره لدوافعه الطبيعية الكامنة فيه ، هو الطريق الصحيحة لاكتسابه العادات اللازمة للشخصية الناجحة ، فبقدر ما يفرضه الدين على الطفل من هذه الصفات الطيبة التى ينبغى له تعلمها يمضى الطفل حثيثاً إلى اكتساب صفات الشخصية الفاضلة » (١) .

ويؤكد الدكتور « لنك » أن الدروس الدينية ، والتردد على بيوت العبادة لها فى نفس الصبى أعمق الأثر ، وأطيب الثمرات ، كما أثبتت ذلك التجارب والمقارنة بين الأطفال بعضهم وبعض . وفى ذلك يقول (٢) :

« ومهما بلغت المساوئ التى نلمسها فى أماكن العبادة ، والاستماع إلى العظات الدينية ، فإن هذه البيوت تساعدنا على غرس الأسس السليمة للخطأ والصواب ، والأعمال الأنانية وغير الأنانية فى نفوس الأطفال . كما أنها تُساعد على غرس الإيمان بالله والاعتقاد فى ناموسه الخُلُقى الإلهى كمصدر لتلك الأسس . ولذا فهى ذات فائدة عُظمى للآباء والمجتمع ، كى يبثوا الأسس الضرورية لتكوين الخُلُق القويم والشخصية الناجحة . وبناءً على ذلك ، ليس من المستغرب أن يدلنا

---

(١) العودة إلى الإيمان ،ص ١٩٩ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق ص ١٢٢

الاختبار السابق الذكر على أن الطفل الذى يستمع إلى الدروس الدينية يتمتع بصفات شخصية أفضل ممن لا يحضرها ، وأن الطفل الذى يذهب والداه إلى المعبد ذوشخصية أحسن من الطفل الذى لا يذهب والداه إليه . وقد اتضح لى بعد دراسة كاملة لعشرة آلاف شخص ، أن أولئك الذين يواظبون على الذهاب إلى دُور العبادة ، كانوا ذوى صفات شخصية أفضل ممن لا يذهبون » .

ولا يقتصر على ذلك ، بل يلح على التبكير بإعطاء هذه الدروس للأطفال وأعوادهم غضه ، ولو لم يفهموا كل ما يُقال لهم ، ويرى من الخطأ والخطر تأخير هذه الدروس الدينية إلى السن التى يفهمون فيها .

يقول : « إن الوقت الأمثل لتعليم الطفل كيف يُخضع دوافعه لقيم عُليا ، هو السن التى يستطيع فيها أن يتقبل ما يُقال له دون أن يفهمه .

فإذا استقر رأى الآباء على عدم إرسال أولادهم إلى الدروس الدينية ، حتى يبلغوا السن التى يفهمون عندها ما يستمعون إليه ، فهم فى الحقيقة يتبعون مبدأ هداماً ، لأن الوقت يكون قد فات لإصلاح ما فسد إذا بلغ الطفل السن التى يفهم بها كل ماحوله ، فإنه حينئذ يكون قد أضاع من عمره سنين ثمينة » (١).

ويختتم حديثه عن التربية والتعليم بهذه الأسطر الناصعة :

« إن ميدان التعليم لفى مسيس الحاجة إلى جمع القيم والحقائق الأساسية التى تبحث فى الطبيعة البشرية وتصنيفها ، حتى يمكن المحافظة على تلك التقاليد النبيلة التى اكتسبها الجنس البشرى ، ووضعها فى المكان اللائق بها ، وحتى يمكن إخضاع الغطرسة الفكرية لنظام الحياة غير الأنانية .

ولن تجد ما يجمع بين تلك القيم الماضية القديمة والمُثُل الحاضرة الحديثة غير الدين » (٢).

---

(١) العودة إلى الإيمان ،ص ١٣٠

(٢) المرجع السابق ،ص ١٨١

● **خرافة « الضمير بلا إيمان » :**

ويزعم بعض الناس أنه يمكن الاستغناء عن الدين والإيمان بـ « الضمير » واتخاذه أساساً ومقياساً للأخلاق بدل الدين .

وهذا ما حاوله الغربيون حينما أرادوا أن يتحرروا من سلطان الكنيسة ورجال كهنوتها وتدخلهم فيما ليس من شأنهم من أمور العلم المتغير والحياة المتجددة ، ووقوفهم مع الأباطرة والأمراء الظَلَمة الجائرين . لقد ثاروا على ما يتصل بالكنيسة . حتى عقائدها وأخلاقها .

ورأى القائمون على الثورة العلمانية الجديدة أن يستعيضوا عن الدين بوحى « الضمير » وأن يتخذوا وحى الضمير الأساس الذى لا يُخطئ ، والمقياس الذى لا ريب فيه ، بالنسبة للأخلاق .

ولم ينته الأمر عند هذا الحد ، فقد بدأ القوم يتراجعون عن تطرفهم شيئاً فشيئاً .

يقول أستاذنا الدكتور عبد الحليم محمود فى كتابه « الإسلام والعقل » :

« وحينما هدأت الأمور فى الغرب ، وعادت الحياة إلى مجراها الطبيعى ، بعد الصراع العنيف ، بين الكنيسة والثوّار ، الذى دام فترة طويلة من الزمن أخذ العلماء يراجعون أنفسهم ويدرسون فى هدوء ودعة المبادئ التى قامت عليها الثورة المنتصرة ، والأهداف التى حُددت ، والغايات التى رُسمت ، والقواعد التى خُططت . ثم هذَّبوا فى كل ذلك وغيَّروا وبدلوا . وكان مما راجعوا أنفسهم فيه مسألة « الضمير » .

ولما استعرضوا التاريخ والوقائع والمشاهدات ، يستنيرون بها فى أمر الضمير ، رأوا كما قال الأستاذ أندريه كريسون : « أن الناس فى كل العصور ، وفى جميع الأقطار . يستشيرون ضمائرهم ، ولكنها لا تُسمعهم جميعاً لحناً واحداً إذ إن ما يظهر عدلاً وخيراً لبعض النفوس المخلصة فى عصر خاص ، لا يظهر عدلاً ولا خيراً لنفوس أخرى ، هى أيضاً مخلصة ، ولكنها عاشت فى عصر آخر

أو مكان آخر»[1] أما إذا أردنا ، أمثلة على ذلك ، فإننا سنجدها كثيرة ، عندما نوازن بين أحوال الضمير خلال مختلف العصور .

ويضرب لنا الأستاذ ـ أندريه كريسون ـ الأمثلة الكثيرة :

« ففى العصور القديمة اليونانية ـ اللاتينية كان نظام الرِّق مشروعاً : إن أشرف القلوب ، إذ ذاك كانت تجد من الطبيعى أن يُباع الرجال والنساء والأطفال ، وأن يُعامَلوا معاملة السوائم .

وكانت القوانين الرومانية القديمة ، تجعل من المرأة والأطفال ملكاً للزوج ، كما لو كانوا أمتعة وأنعاماً ، لهذا كان للأب ، من بين الحقوق الأخرى ، الحق فى أن يعرض ابنته المولودة حديثاً ، فى السوق العام ، إذا كانت له بنت أخرى .

ولسنا بحاجة إلى أن نذهب بعيداً . فهاهم أولاء أسلافنا . كانوا يرون شرعية تطبيق العقوبة على مجرد ظن الجريمة ، وكانوا بلا أدنى قلق يشاهدون الفرد مشنوقاً من أجل اختلاس تافه » .

ولكننا عندما نوازن بين أحوال الضمير فى العصر الواحد فى أقطار مختلفة ، إننا نجد أيضاً فروقاً لاتكاد تُحصَى ولا تُعَد .

على أن الدلالة العميقة ، إنما هى مظاهر اختلاف الضمير فى البيئة الواحدة وفى الجماعة الواحدة ، المتحضرة المتمدنة .

وبعد أن أورد الدكتور أمثلة شتَّى مما ساقه العالم الفرنسى الكبير « أندريه كريسون » قال : « هذه الأمثلة ، إنما هى قطرة من بحر ، مما يمكن أن يُبرهَن به على اختلاف الضمير ، بحسب اختلاف الزمن أو اختلاف الثقافات فى البيئة الواحدة . وهناك أمثلة لا تحصى إذا قارنا ضمائر العرب فى العصر الجاهلى بضمائرهم فى العصر الإسلامى ، أو ضمائر الوثنيين فى مكة بضمائر المسلمين فيها عند نشأة الإسلام ... إلخ . والنتيجة لكل هذه المقارنات هى : أن اتخاذ الضمير كأساس للأخلاق أو كمقياس لها ، إنما هو مجرد حماقة وعبث .

---

(١) المشكلة الأخلاقية والفلاسفة ، للكاتب الفرنسى أندريه كريسون ، ص ٢٢-٢٥ ، ط ثانية .

ومن الشُّبه التى جعلت الناس يؤمنون ، بمنزلة كبرى للضمير ، ويرفعونه ! أنه قد شاع بين بعض الطوائف ، أن الضمير قوة فطرية معصومة بطبعيتها ، ولكن هذه الدراسة السابقة تؤدى بنا لا محالة إلى أن الضمير قوة فطرية حقاً ، ولكنها قوة غير معصومة ، لأنها تُربى وتكتسب فيما يتعلق باللَّون الذى تتخذه .

وهى وإن كانت قوة فطرية إلا أنها تتلون بحسب ما تتغذى به من ثقافة ومن وراثة ، وهى تختلف فى الفرد الواحد بحسب اختلاف سنه ، وبحسب تنقله من بيئة إلى بيئة ، وبحسب الكتب التى تمده بالثقافة العقلية ، أو التهذيب الروحى ، وبحسب اختلاف الأصدقاء ، الذين يلازمهم الإنسان فى حياته الواحد تلو الآخر.

والضمير إذن متأرجح متقلب ، لا يستقر له قرار ، لأنه حتى لو مكث على حالة واحدة تجاه مسألة معينة فإنه فى هذه الحالة النادرة يتأرجح أيضاً قوةً وضعفاً ، واتزاناً وإسرافاً .

والوضع الصحيح إذن ـ بالنسبة لأساس الأخلاق ـ : أن نلجأ إلى الدين ، نستمد منه الهداية والإرشاد ، فإنه وحده المعصوم .

والدين الإسلامى أتى فى الجانب الأخلاقى بكل ما تتطلبه النفوس المرهَفة ، والأفئدة المتعطشة للاستقامة . لقد أقر بذلك كبار الفلاسفة الإسلاميين كـ « ابن سينا » وغيره .

لقد رأى ابن سينا ، أن الدين الإسلامى ، أتى بأكمل نظام أخلاقى تشريعى بالنسبة للمجتمع ، وبالنسبة للأسرة ، وبالنسبة للفرد ، وتحدَّث ابن سينا عن ذلك غير مرة فى مختلف كتبه .

أما صلة الدين بالضمير ، فإنها صلة هيمنة وتوجيه وإرشاد وسيطرة . إنها صلة هيمنة ، تستمر مدى الحياة وإذا مازالت هذه الهيمنة فى أى فترة من فترات الحياة ، فإن الضمير يختل اتزانه وتوازنه ، ويتأرجح ويتذبذب ، لأنه يحتاج باستمرار إلى القائد المُربِّى ، وليس القائد المُربِّى إلا الدين » .ا هـ .

من أخلاق الإيمان

البـذل والتضحية

● **الأنانية جزء من الكيان الفطرى للإنسان:**

مهما يكن الخلاف بين المثاليين والواقعيين من فلاسفة الأخلاق فإن «الفردية» وبعبارة أوضح «الأنانية» جزء من الكيان الفطرى للإنسان، فهو – بما رُكِّب فيه من دوافع نفسية – «أنانى» يحب الخير لنفسه، والمنفعة لذاته، قبل كل شىء، وهذا أمر اقتضته الحكمة الإلهية لعمارة الأرض واستمرار الحياة وازدهارها، ثم هو من مقتضيات الابتلاء الذى بُنِىَ عليه تكليف الإنسان واستخلافه فى هذه الأرض.

وفى الإنسان بلا شك نزعة اجتماعية غيرية، فطرية كذلك، ولكنها، لا تقاوم نزعته الذاتية لو خُلِّيَت وشأنها. ومن هنا ترى الإنسان – كل إنسان – حريصًا على أن يجمع لنفسه من أسباب النعمة ما استطاع، حريصًا على الاستئثار به دون غيره، حتى إنه ليشيب ويهرم، ويشب معه الحرص والشُّح، ولذا وصفه خالقه بقوله: ﴿ **وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُوراً** ﴾ [الإسراء: ١٠٠]، ﴿ **وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ** ﴾ [النساء: ١٢٨]. وصوَّر رسول الله ﷺ مبلغ حرص الإنسان على الدنيا وطمعه فى متاعها فقال: «لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى ثالثًا».

وإذا تُرِكَ الإنسان لهذه الأنانية تسيطر على نفسه، وتحكم سلوكه وتُوَجِّه علاقاته بالناس، فلن نجد فيه إلا إنسانًا جشعًا شحيحًا، كل همه أن ينتفع ولا ينفع، وأن يأخذ ولا يعطى، يريد أن يربح، ولا يريد أن يعمل، يقول دائمًا: لى .. ولا يقول يومًا: علىَّ، ضنين بكل ما عنده، شره إلى ما عند غيره.

والبَلِيَّةُ كل البلية أن تشيع هذه الروح الخبيثة فى مجتمع، فيقول كل امرئ فيه: نفسى .. نفسى، ولا يقول: أمتى .. أمتى.

والإنسان إذا تُرِكَ ونزعته الفردية، فإنه يؤثر - غالبًا - السلامة، ولا يرضى بتعريض نفسه لخطر أو أذى، من أجل فكرة أو رسالة أو مصلحة كبرى، ولو سرت هذه الروح، روح طلب السلامة، لوقفت عجلة الرقى، وأفلت شمس الحضارة، وانطمست معالم الحق، وغاضت ينابيع الخير. فإن رسالات النبيين، وأفكار المصلحين، لم تعل كلمتها إلا ببذل النفس والمال، والتضحية بكل غال وعزيز، من وطن وأهل وعشيرة. وليس هذا فى عالم المعانى والأفكار فحسب، بل نجد الأعمال العظيمة، والمشروعات الضخمة، والانقلابات الكبيرة فى عالم الإنتاج والعمران والاقتصاد والصناعة والتجارة إنما جاءت نتيجة مخاطرات ومغامرات وتضحيات فى مبدأ الأمر. إن الذى يجعل كل همه فى طلب السلامة لا يصنع شيئًا ذا بال، ومن قبل قال الطغرائى فى لاميته:

حبُّ السلامة يُثنى هم صاحبه عن المعالى ويُغرى المرء بالكسلِ
فإن جنحتَ إليه فاتخذ نفقًا فى الأرض أو سُلمًا فى الجو فاعتزلِ

وقال أبو الطيب:

ذريني أنال ما لا يُنال من العُلى
فصعب العُلى فى الصعب والسهل فى السهلِ
تُريدينَ إدراك المعالى رخيصة
ولا بد دون الشهد من إبر النحلِ

والمجتمع الذى يريد أن يبنى مجداً، ويشيد حضارة، وينهض برسالة، فى حاجة إلى جهود مضاعفة للبناء والرُّقى والنهوض، فى حاجة إلى عقول لا تسأم التفكير، وإلى سواعد لا تشكو التعب، وإلى عزائم لا تشكو الملل والفتور، فى حاجة إلى الإنسان الذى يُعطى قبل أن يأخذ، ويُؤدى الواجب قبل أن يطلب الحق، والإنسان الذى تقر عينه بفراق الأهل من أجل الأمة، بالغُربة عن البيت من أجل

الوطن، ويطيب نفسًا ببذل المال عند الحاجة، وبذل الروح عند الضرورة، ويضحى بمصلحته الخاصة فى سبيل المصلحة العامة، ويرضى بالتقشف والشظف والحرمان، إذا كان فيه انتصار لحق أو خير، بل يستمرئ المر ويستعذب العذاب، ويرحب بالموت الزؤام فى سبيل ما يؤمن به من الهُدى والحق.

فليت شعرى أين يوجد هذا الإنسان؟ ومن أى مدرسة يتخرج؟

لعَمرى إن المدرسة الفذَّة التى تُخَرِّج هذا الصنف من الناس هى مدرسة الإيمان.

الإيمان هو الذى يهوِّن على الإنسان شهواته ومطالب دنياه، فإذا هو يكتفى بما يسد الجوعة من الطعام. وما يستر العورة من اللباس. وإذا هو يرضى بالقليل من المال، والمتواضع من المسكن، بل يهوِّن على الإنسان ماله فينفقه، ومسكنه فيهجره، وأهله فيرحل عنهم، بل يهوِّن عليه حياته نفسها، فإذا هو يضع رأسه على كفه، يخوض المعامع، رابط الجأش راضى النفس، مطمئن الضمير. فإذا أدركه الموت فى ميدان الجهاد، استقبله بارتياح وسرور، لأنه يُوقن أن وراءه الجنة: ﴿**وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ**﴾ [التوبة: ٧٢].

ذلك أن الإنسان يكاد لا يعطى شيئًا إلا ليأخذ فى مقابله شيئًا، نقداً أو نسيئة، فنفسه تتطلع دائمًا إلى الجزاء العادل على ما قدَّم، وقد حاول الفلاسفة الماديون أن يُشبعوا هذا الجانب بالأجزية الأخلاقية المجرَّدة عن الدين، وعن طريق ما أسموه «الضمير» الذى يجزى فاعل الخير، ومؤدى الواجب، بالسرور والرضا والارتياح الذى يحسه الإنسان بين جنبيه.

ولكنهم حاروا كيف يجزى من يضحى بنفسه ويبذل روحه ويموت شهيداً فى سبيل الحق؟ إنه لا مجال لرضا النفس وراحتها بعد الموت عند هؤلاء الماديين، والموت عندهم فناء محض. إن الإيمان بالله وبجزاء الآخرة هو الذى يحل هذه العقدة. وفى البذل والتضحية باسم الدين إرضاء لهذا الجانب فى نفس الإنسان، فإن ما أعطاه المؤمن يعود عليه أضعافًا مضاعفة، وما أنفقه من مال فالله يُخلفه،

وما أصابه من أذى فى نفسه أو بدنه فالله معوِّضه عنه، وإذا قَدَّم روحه فى سبيل الله فمات أو قُتل فلم يمت في الحقيقة، وإنما هو حي عند ربه يُرزق ... وفي هذا كله يقول القرآن: ﴿ **وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ** ﴾ [البقرة: ٢٧٢] و﴿ **وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ** ﴾ [سبأ: ٣٩]، ﴿ **وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ** ﴾ [آل عمران: ١٥٧]، ﴿ **وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ** ﴾ [محمد: ٤-٦].

إن كل جهد - مادى أو أدبى، نفسى أو بدنى - يبذله المؤمن فى سبيل الله - مهما يبلغ من ضآلة حجمه فهو محسوب له فى «رصيد» حسناته عند الله، لا يضيع منه مثقال ذرَّة، حتى الخطوة التى تمشيها قدمه، وحتى الفلس يُنفقه، وحتى الإحساس بالجوع أو العطش أو التعب: ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [التوبة: ١٢٠ - ١٢١].

فلا عجب أن نرى دينًا كالإسلام يُقدِّم لنا - فى مرحلة قوته وازدهاره - نماذج رائعة للتضحية والبذل والكفاح والجهاد، وبأعداد هائلة، تُقدِّم ما تملك من نفس ومال فى سبيل الله وهى قريرة العين.

● **نماذج مؤمنة للبذل والتضحية:**

وحسب المرء منهم أن يسمع أو يقرأ آية من كتاب الله تدعوه إلى الإنفاق والجهاد، فإذا هو يُسارع إلى تنفيذها ولا يُحجم ولا يتردد مقدمًا النفس والنفيس ابتغاء رضوان الله.

قرأ أبو طلحة الأنصارى سورة «براءة» حتى بلغ هذه الآية: ﴿ **انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ [التوبة: ٤١] فقال: خفافًا وثقالاً، شبانًا وكهولاً، ما سمع الله عذر أحد، وقال لبنيه: أى بنى، جهزونى .. جهزونى .. جهزونى .. (يعنى للجهاد) فقال بنوه: يرحمك الله، قد غزوت مع النبى ﷺ حتى مات، ومع أبى بكر حتى مات، ومع عمر حتى مات. فنحن نغزو عنك! قال: لا .. جهزونى .. فجهزوه بجهاز الحرب، فغزا فى البحر، فمات فى البحر، فلم يجدوا له جزيرة يدفنونه فيها إلا بعد سبعة أيام فدفنوه فيها رضى الله عنه.

وخرج سعيد بن المسيب إلى الغزو، وقد ذهبت إحدى عينيه، فقيل له: إنك عليل! فقال: استنفرَ الله الخفيف والثقيل، فإن لم يمكنى الحرب كثَرتُ السواد وحفظتُ المتاع.

ورأى بعضهم فى غزوات الشام رجلاً قد سقط حاجباه على عينيه من الكِبْر فقال له: يا عم؛ إن الله قد عذرك: فقال: يا ابن أخى قد أمرنا بالنفير خِفافًا وثقالاً» (١).

ولقد رُوِىَ فى بعض الغزوات أن الابن وأباه كانا يتسابقان إلى الجهاد، فيقرعان بينهما فتخرج القُرعة للابن، فيقول الأب: آثرنى يا بُنى، أنا أبوك! فيقول الابن: إنها الجنة يا أبت! ولو كان شىء غيرها لآثرتُك والله.

وعمرو بن الجموح الأنصارى أعرج شديد العرج، وكان له أربعة بنين شباب، يغزون مع الرسول ﷺ. فلما كان يوم أحد، طلب إلى بنيه أن يَعدُّوا له عدَّة الجهاد، فقال له بنوه: إن الله قد جعل لك رُخصة فلو قعدتَ ونحن نكفيكَ! وقد وضع الله عنك الجهاد؟ فأتى عمرو رسول الله ﷺ فقال: إن بنَىَّ هؤلاء يمنعوننى أن أجاهد معك، ووالله إنى لأرجو أن أستشهد فأطأ بعرجتى هذه فى الجنة!! فقال له رسول الله ﷺ: «أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد». وقال لبنيه: «وما عليكم أن تدعوه، لعل الله عز وجل يرزقه الشهادة». فخرج مع رسول الله ﷺ - فقُتِلَ يوم

---

(١) ذكر هذه الوقائع الإمام القرطبى فى تفسير: «خفافًا وثقالاً».

أحد شهيداً – وفيه قال النبى ﷺ للأنصار: «إن منكم يا معشر الأنصار من لو أقسم على الله لأبره، منهم عمرو بن الجموح»!

وهذا نموذج آخر من نماذج التضحية: نموذج التضحية بالراحة والثروة، والاستمتاع بالحياة الرضية الناعمة، وارتضاء الحرمان والمشقة والبلاء والأذى فى سبيل الله.

فتًى كمصعب بن عمير، نشأ فى الحلية، وُرَبِّىَ فى الرفاهية والنعمة، بين أبوين يحبانه أشد الحب، ويحنوان عليه أعظم الحنو، يغذوانه بأطيب الطعام، ويكسوانه بأحسن اللباس، وينشران عليه أجنحة العطف والإيثار والرعاية والتدليل، فتًى مُنَعَّم مُدَلَّل كهذا، ما الذى يجعله يدع هذه الحياة اللذيذة الهادئة الهانئة، إلى حياة خشونة وبأساء، وزلزلة وجهاد، وغُربة وهجرة؟. ما الذى جعله يرضى بمفارقة الأهل والوطن، ويرغب عن الثروة والجاه ويفر بدينه مهاجراً إلى الحبشة ثم إلى المدينة، حتى يموت فى دار الهجرة شهيداً فى غزوة أحد، فلا يجد المسلمون له ثوباً يكفى لغطاء جسده، كل الذى وجدوه ثوب قصير، إذا غُطِىَ به رأسه بانت رجلاه، وإذا غُطِيتْ به رجلاه، بانت رأسه؟؟ لا شىء إلا الإيمان.

يروى «ابن سعد» عن محمد بن شرحبيل العبدرى، أحد أقرباء مصعب هذه الكلمات فى وصفه. يقول: كان مصعب بن عمير فتى مكة شباباً وجمالاً وسبيباً، وكان أبواه يُحبانه، وكانت أمه مليئة كثيرة المال، تكسوه أحسن ما يكون من الثياب وأرقه، وكان أعطر أهل مكة، يلبس الحضرمى من النعال، فكان رسول الله ﷺ يدعو إلى الإسلام فى دار الأرقم بن أبى الأرقم فدخل عليه فأسلم وصدَّق به، وخرج فكتم إسلامه خوفاً من أمه وقومه فأخذوه فحبسوه، فلم يزل محبوساً حتى خرج إلى أرض الحبشة فى الهجرة الأولى، ثم رجع مع المسلمين حين رجعوا، فرجع متغير الحال قد حرج – يعنى غلظ.

ويقول خباب بن الأرت: هاجرنا مع رسول الله ﷺ نبتغى وجه الله فوجب أجرنا على الله، فمنا من مضى، ولم يأكل من أجره شيئاً منهم مصعب بن عمير،

قُتِلَ يوم أحد فلم يوجد له شيء يكفيه يُكَفَّن فيه إلا نمرة، قال: فكنا إذا وضعناها على رأسه خرجت رجلاه، وإذا وضعناها على رجليه خرج رأسه، فقال لنا رسول الله ﷺ: «اجعلوها مما يلى رأسه، واجعلوا على رجليه من الإذخر».

ولقد وقف الرسول ﷺ على هذا الفتى، وهو مقتول مسجى فى برده، فقال والدموع تزدحم فى عينيه: «لقد رأيتُك بمكة وما بها أحد أرق حلة، ولا أحسن لمة منك، ثم أنت شعث الرأس فى بُردة».

وعن عبيد بن عمير أن النبى ﷺ وقف على مصعب وهو منجعف على وجهه، فقرأ هذه الآية: ﴿**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا**﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وهذا نموذج آخر من نماذج التضحية: هى التضحية بالمال، يرويه لنا زيد ابن أسلم رضى الله عنه قال: لما نزل: ﴿**مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا**﴾ [البقرة: ٢٤٥]. قال أبو الدحداح: فِدَاكَ أبى وأمى يا رسول الله! وإن الله يستقرضنا وهو غنى عن القرض؟ قال: «نعم يريد أن يُدخلكم الجنة به» قال: فإنى قد أقرضتُ ربى قرضا يضمن لى به ولصبيتى الدحداحة معى الجنة؟ قال: «نعم» قال: ناولنى يدك، فناوله رسول الله ﷺ يده. فقال: إن لى حديقتين إحداهما بالسافلة والأخرى بالعالية، والله لا أملك غيرهما، قد جعلتهما قرضًا لله تعالى. قال رسول الله ﷺ: «اجعل إحداهما لله والأخرى دعها معيشة لك ولعيالك». قال: فأشهدك يا رسول الله أنى قد جعلت خيرهما لله تعالى وهو حائط فيه ستمائة نخلة. قال: «إذن يجزيكَ الله به الجنة». فانطلق أبو الدحداح حتى جاء أم الدحداح وهى مع صبيانها فى الحديقة تدور تحت النخل فأنشأ يقول:

هداك ربى سبل الرشادِ ... إلى سبيل الخير والسدادِ
بيعى من الحائط بالوادِ ... فقد مضى قرضًا إلى التنادِ
أقرضتُه الله على اعتمادى ... بالطوع لا منٍّ ولا ارتدادِ
إلا رجاء الضعف فى المعادِ ... فارتحلى بالنفس والأولادِ

والبِـــرُ لا شك فـــخـــيـــر زاد قـــدَّمــــه المرء إلى المعــــادِ

فقالت أم الدحداح: ربح بيعك! بارَك الله لك فيـمـا اشـتـريـت! وأجـابـتـه أم الدحداح وأنشأت تقول:

بَشَّــرك الله بخـــيـــر وفـــرح مــثلك أدَّى مــا لديه ونصح

قـــد مـتَّـع الله عـــيـــالى ومنح بالعجوة السوداء والزهو البلح

والعبـد يسعى وله ما قـد كدح طول اللَّيـالى وعليه ما اجترح

ثم أقبلا أم الدحداح على صبيانها تُخرج ما فى أفواههم وتنفض ما فى أكمامهم حتى أفضت إلى الحائط الآخر، فقال النبى ﷺ «كم من عذق رداح ودار فيَّاح لأبى الدحداح» أى فى الجنة.

إن تاريخ الإسلام وتاريخ الأنبياء وأتباعهم فى كل عصر، حافل بالصور الحيه، والنماذج الرائعة للبذل والتضحية فى سبيل الحق. وهى صور ونماذج لم يصنعها غير الإيمان، ولن يصنع أمثالها - إذا أردنا لها أمثالاً - إلا الإيمان!

* * *

openikandl.com

القوة

● **حاجة الفرد والمجتمع إلى القوَّة النفسية:**

وللإنسان فى الحياة آمال عريضة، وأهداف قريبة وبعيدة، ولكن الطريق إليها شائك وطويل، والعقبات متنوعة، والمعوِّقات كثيرة، بعضها من الطبيعة وسُنَن الله فيها، وبعضها من البشر أنفسهم، فلا غرو أن يظل الإنسان فى جهاد دائب. وعمل متواصل، ليتغلب على الآلام والمعوِّقات ويُحقق الأهداف والآمال.

وما أشد حاجة الإنسان إلى قوة تسند ظهره، وتشد أزره، وتأخذ بيده، وتُذلِّل له العقبات، وتقهر أمامه الصِعاب، وتُنير له الطريق.

وليست هذه القوة المنشودة إلا فى ظلال العقيدة، ورحاب الإيمان بالله.

الإيمان بالله هو الذى يمدنا بروح القوة، وقوة الروح، فالمؤمن لا يرجو إلا فضل الله، ولا يخشى إلا عذاب الله، ولا يُبالى بشىء فى جنب الله. إنه قوى وإن لم يكن فى يديه سلاح، غنى وإن لم تمج خزائنه بالفضة والذهب، وإن لم يكن وراءه عشيرة وأتباع، راسخ وإن اضطربت سفينة الحياة، وأحاط بها الموج من كل مكان.

فهو بإيمانه أقوى من البحر والموج والرياح، وفى الحديث: «لو عرفتم الله حق معرفته لزالت بدعائكم الجبال».

وهذه القوة فى الفرد مصدر لقوة المجتمع كله، وما أسعد المجتمع بالأقوياء الراسخين من أبنائه، وما أشقاه بالضعفاء المهازيل، الذين لا ينصرون صديقًا، ولا يُخيفون عدوًّا، ولا تقوم بهم نهضة، أو ترتفع بهم راية.

● **مصادر القوة عند المؤمن- الإيمان بالله:**

المؤمن قوى، لأنه يستمد قوته من الله العلى الكبير، الذى يؤمن به، ويتوكل عليه، ويعتقد أنه معه حيث كان، وأنه ناصر المؤمنين، وخاذل المبطلين،

﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٤٩] عزيز لا يُذل من توكل عليه، حكيم لا يُضيع من اعتصم بحكمته وتدبيره.

﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

والتوكل على الله - وهو من ثمار الإيمان - ليس استسلام متبطل، أو استرخاء كسول، إنه معنى حافز، وشُحنة نفسية، تغمر المؤمن بقوة المقاومة، وتملؤه بروح التحدى والإصرار، وتشحذ فيه العزم الصارم، والإرادة الشمَّاء، والقرآن يقص علينا كثيرًا آثار هذا التوكل فى أنفس رسل الله، إزاء أعداء الله.

فهذا نبى الله هود فى صراعه مع قومه «عاد» يجد من هذا التوكل حصنًا حصينًا يلجأ إليه ﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود: ٥٣ - ٥٦].

وهذا شعيب وقومه يساومون ويهددون ﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ * قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ [الأعراف: ٨٨ - ٨٩].

وهذا موسى بعد أن تميَّز بقومه عن معسكر الفراعنة يقول لهم: ﴿ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ * فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [يونس: ٨٤ - ٨٦].

وها هم الرسل جميعًا يعتصمون بالتوكل على الله أمام عناد أقوامهم وإيذائهم ﴿ **وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ** ﴾ [إبراهيم: ١٢].

● **الإيمان بالحق:**

يستمد المؤمن قوّته من الحق الذى يعتنقه، فهو لا يعمل لشهوة عارضة، ولا لنزوة طارئة، ولا لمنفعة شخصية، ولا لعصبية جاهلية، ولا للبغى على أحد من البَشر، ولكنه يعمل للحق الذى قامت عليه السموات والأرض، والحق أحق أن ينتصر، والباطل أولى أن يندثر ﴿ **بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ** ﴾ [الأنبياء: ١٨] ﴿ **وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا** ﴾ [الإسراء: ٨١]

دخل – ربعى بن عامر – مبعوث سعد بن أبى وقاص فى حرب القادسية – على رستم قائد جيوش الفُرس، وحوله الأتباع والجنود، والفضة والذهب. فلم يبال بشىء منها، ودخل عليهم بفرسه القصيرة، وترسه الغليظة، وثيابه الخشنة، فقال له رستم: من أنت ... وما أنتم؟

فقال له: نحن قوم ابتعثنا الله لنُخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

المؤمن بإيمانه بالله وبالحق على أرض صلبة غير خائر ولا مضطرب، لأنه يعتصم بالعُروة الوُثقى ويأوى إلى ركن شديد: ﴿ **فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا** ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

فليس هو مخلوقًا ضائعًا، ولا كمًّا مهملاً، إنه خليفة الله فى الأرض، إن تظاهر عليه أهل الباطل، فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين، والملائكة بعد ذلك ظهير، فكيف يضعف المؤمن أمام البشر ومن ورائه الملائكة؟ بل كيف ينحنى للخلق ومعه الخالق؟ ﴿ **الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ**

فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ﴾ [آل عمران: ١٧٣ - ١٧٤].

هذا الإيمان هو الذى جعل بضعة شبان كأهل الكهف، يواجهون بعقيدتهم ملكًا جبارًا، وقومًا شديدى التعصب، غلاظ القلوب، مع قلة العدد، وانعدام الحول والطول المادى ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى * وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا * هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ [الكهف: ١٣ - ١٥].

● **الإيمان بالخلود:**

ويستمد المؤمن قوَّته من الخلود الذى يُوقن به، فحياته ليست هذه الأيام المعدودة فى الأماكن المحدودة، إنها حياة الأبد، وإنما ينتقل من دار إلى دار.

وما الموتُ إلا رحلة غير أنها من المنزل الفانى إلى المنزل الباقى

هذا عُمير بن الحمام الأنصارى فى غزوة بدر يسمع النبى ﷺ يقول لأصحابه: «والذى نفسى بيده ما من رجل يُقاتلهم اليوم - المشركين - فيُقتل صابرًا محتسبًا مقبلاً غير مُدبرٍ إلا أدخله الله الجنة» فيقول عُمير: بَخٍ بَخٍ - كلمة تعجب - فيقول: «مِمَّ تُبخبخ يا ابن الحمام»؟ فيقول: أليس بينى وبين الجنة إلا أن أتقدم فأقاتل هؤلاء فأقتَل؟ فيقول الرسول: «بلى»، وكان فى يد عُمير تمرات يأكل منها فقال: أأعيش حتى آكل هذه التمرات؟ إنها لحياة طويلة! وألقى التمرات من يده وأقبل يُقاتل ويقول:

ركضًا إلى الله بغير زاد إلا التُّقى وعمل المعاد
والصبر فى الله على الجهاد وكل زاد عُرضة للنفاد
غير التُقى والصبر والرشاد

وهذا أنس بن النضر يُقاتِل قتال الأبطال فى أحد، ويلقاه سعد بن معاذ فيقول له: يا سعد، الجنة ورب النضر، أجد ريحها من وراء أحد!!

● **الإيمان بالقَدَر:**

ويستمد المؤمن قوَّته من القدر الذى يؤمن به، فهو يعلم أن ما أصابه من مصيبة فبإذن الله، وأن الإنس والجن لو اجتمعوا على أن ينفعوه بشىء لم ينفعوه إلا بشىء قد كتبه الله له، ولو اجتمعوا على أن يضروه بشىء، لم يضروه إلا بشىء قد كتبه الله عليه. ﴿**قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**﴾ [التوبة: ٥١].

المؤمن يعتقد أن رزقه مقسوم، وأجله محدود، لا يستطيع أحد أن يحول بينه وبين ما قَسَم الله له من رزق، ولا أن ينتقص ما كتب الله له من أجل، وهذه العقيدة تُعطيه ثقة لا حدود لها، وقوة لا تقهرها قوة بَشر، وقد كان الرجل يذهب إلى الميدان مجاهداً فى سبيل الله فيعترض سبيله المُثَبِّطون، ويُخَوِّفونه من ترك أولاده. فيقول: علينا أن نُطيعه تعالى كما أمَرَنا، وعليه أن يرزقنا كما وَعَدَنا.

وكان المعوِّقون والمخذِّلون يذهبون إلى المرأة فيُثيرون مخاوفها على رزقها ورزق عيالها إذا ذهب زوجها إلى الجهاد، فتجيبهم فى ثقة واطمئنان: زوجى عرفته أكَّالاً ولم أعرفه رزَّاقًا، فإن ذهب الأكَّال فقد بقى الرزَّاق!!

وكان علىّ بن أبى طالب يخوض المعامع وهو يقول:

أىُّ يومى من الموت أفِـــرُّ؟ يوم لا يقـــدر أم يوم قـــدر؟

يوم لا يقـــدر لا أحـــذره ومن المقـــدور لا يُنجى الحـــذر

قال السيد جمال الدين الأفغانى: «الاعتقاد بالقضاء والقَدَر – إذا تجرد عن شناعة الجبر – يتبعه صفة الجرأة والإقدام، وخُلُق الشجاعة والبسالة يبعث على اقتحام المهالك التى توجف لها قلوب الأسود، وتنشق منها مرائر النمور، هذا الاعتقاد يطبع الأنفس على الثبات، واحتمال المكاره، ومقارعة الأهوال، ويُحليها

بحلل الجود والسخاء، ويدعوها إلى الخروج عن كل ما يعز عليها، بل يحملها على بذل الأرواح، والتخلى عن نضرة الحياة . . كل هذا فى سبيل الحق الذى قد دعاها للاعتقاد بهذه العقيدة.

الذى يعتقد بأن الأجل محدود، والرزق مكفول، والأشياء بيد الله، يُصرِّفها كيف يشاء، كيف يرهب الموت فى الدفاع عن حقه، وإعلاء كلمة أمته أو ملته، والقيام بما فرض الله عليه من ذلك؟

اندفع المسلمون فى أول نشأتهم إلى الممالك والأقطار يفتحونها ويتسلطون عليها، فأدهشوا العقول، وحيَّروا الألباب بما دوخوا الأمم، وقهروا الدول، وامتدت سلطتهم من جبال بيرينيه – الفاصلة بين أسبانيا وفرنسا – إلى جدار الصين، مع قلة عدتهم وعددهم، وعدم اعتيادهم على الأهوية المختلفة وطبائع الأقطار المتنوعة. أرغموا الملوك، وأذلوا القياصرة والأكاسرة، فى مدة لا تتجاوز ثمانين سنة، إن هذا ليُعَد من خوارق العادات وعظائم المعجزات.

دمَّروا بلاداً ودكُّوا أطواداً، ورفعوا فوق الأرض أرضًا ثانية من القسط، وطبقة أخرى من النفع، وسحقوا رؤوس الجبال تحت حوافر جيادهم، وما كان قائدهم وسائقهم إلى جميع هذا إلا الاعتقاد بالقضاء والقَدَر.

هذا الاعتقاد هو الذى ثبتت به أقدام بعض الأعداد القليلة منهم أمام جيوش يغص بها الفضاء ويضيق بها بسيط الغبراء، فكشفوهم عن مواقعهم، وردوهم على أعقابهم» (١).

● الإيمان بالأُخوة:

ويستمد المؤمن قوَّته من إخوانه المؤمنين، فهو يشعر بأنهم له وهو لهم. يُعينونه إذا شهد، ويحفظونه إذا غاب، ويواسونه عند الشدة، ويؤنسونه عند الوحشة، ويأخذون بيده إذا عثر، ويسندونه إذا خارت قواه، فهو حين يعمل يحس بمشاركتهم، وحين يجاهد يضرب بقوتهم، إذا حارب جيشًا من ألف مؤمن شعر

---

(١) العروة الوثقى – نشر دار العرب للبستانى ص ٥٣.

كل فرد منهم أنه يقاتل بقوة ألف لا بشخصه وحده، وشعر أن هؤلاء الألف يعيشون فى نفسه – كما يعيش هو فى أنفسهم – حبًّا لهم، وحرصًا عليهم، وضنًّا بهم، فإذا ضربتَ الألف فى الألف كان المجموع المعنوى ألف ألف رجل فى الحقيقة وإن كانوا ألفًا واحدة فى لغة الإحصاء والتعداد (١).

حدَّثوا أن جيشًا من المسلمين كان بينه وبين عدوه نهر، فأمرهم القائد أن يخوضوه، ولبُّوا الأمر، وخاضوا النهر، والعدو يشهدهم من بعيد دهشا مرتاعًا .. وفى وسط النهر شهدهم العدو يغوصون فى جوف الماء مرة واحدة كأنما غرقوا، ثم ظهروا فجأة .. فسأل العدو: ما شأنهم؟ فعرفوا أن رجلاً منهم سقط منه قعبه – إناؤه – فصاح: قعبى .. قعبى .. فغاصوا جميعًا يبحثون عن قعب أخيهم .. فقال الأعداء فى ذهول: إذا كانوا يصنعون مثل هذا فى قعب سقط من أحدهم. فماذا يصنعون إذا قتلنا بعضًا منهم؟؟ وفَتَّ ذلك فى عضدهم، وكانت العاقبة التسليم للمؤمنين.

على قدر الإيمان تكون القوَّة:

إن إيمان المسلم بالله الذى لا يُغلب، وبالحق الذى لا يُخذل، وبالخلود الذى لا ينقطع، وبالقَدَر الذى لا يتحوَّل، وبالأخوة الصادقة التى لا تهن – مصادر فيَّاضة بالقوة المعنوية التى لا يُقاس إليها قوة المادة أو السلاح.

وعلى قدر نصيب المرء من الإيمان يكون نصيبه من تلك القوة، نرى ذلك بارزًا فى أرجح المؤمنين ميزانًا بعد رسول الله، فقد تمثلت قوته فى مواقف جعلت عمر الجبار الشديد يقول: «والله لو وُزِنَ إيمان أبى بكر بإيمان هذه الأمة لرجح...».

موقفه يوم توفى الرسول فذهل المسلمون، وأخرجتهم الفجيعة عن وعيهم،

---

(١) وقد شبَّه النبى قوة المؤمن بإخوانه المؤمنين باللَّبنة فى البناء المتين، فقال: «المؤمن للمؤمن كالبُنيان يشد بعضه بعضًا».

اللَّبنة وحدها ضعيفة مقدور عليها، ولكنها داخل البنيان أصبحت مرتبطة به ارتباطًا لا ينفصل، أصبحت جزءا من «الكل» الكبير، لا يسهل كسرها، أو زحزحتها عن موضعها فإن قوتها هى قوة البنيان كله الذى يشدها إليه.

حتى رُوىَ أن عمر قال: من قال إن محمداً مات ضربتُ عنقه بسيفى هذا! هنالك وقف أبو بكر يؤذن فى الناس بصوت جهير: «مَن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت ...»، ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا** ﴾ [آل عمران: ١٤٤] وموقفه بعد ذلك يوم تردد المسلمون فى إنفاذ جيش أسامة الذى جهَّزه النبى إلى الشام قبل مرض موته، فقد طلبوا من أبى بكر أن يُوقف مسير هذا الجيش، فإن الغد مليء بالطوارئ والاحتمالات، ولا يدرى أحد ماذا يفعل العرب فى القبائل والقُرى إذا علموا أن النبى قد مات... ولكن أبا بكر أجابهم فى حزم عازم وقال: «والذى نفس أبى بكر بيده ... لو ظننتُ أن السباع تختطفنى لأنفذتُ بعث أسامة كما أمر به رسول الله، ولو لم يبق فى القُرى غيرى لأنفذته».

وموقفه فى حرب المرتدين ومانعى الزكاة فى الوقت الذى برزت فيه قرون العصبية الجاهلية كأنها قرون الشياطين، وكان المسلمون – بعد موت رسولهم – كالغنم فى اللَّيلة المطيرة، كما وصفتهم عائشة – وحتى قال بعض المسلمين لأبى بكر: يا خليفة رسول الله؛ لا طاقة لك بحرب العرب جميعًا .. إلزم بيتك، وأغلق بابك، واعبُد ربك حتى يأتيك اليقين .. ولكن هذا الرجل الخاشع البكَّاء، الرقيق كالنسيم، اللَّين كالحرير، الرحيم كقلب الأم، ينقلب فى لحظات إلى رجل ثائر كالبحر، زائر كاللَّيث، يصيح فى وجه عمر: أجبَّار فى الجاهلية خوَّار فى الإسلام يا ابن الخطاب؟ لقد تم الوحى واكتمل .. أفينقص وأنا حى؟ والله لو منعونى عقالاً كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه، ما استمسك السيف بيدى!!

● **من ثمار هذه القوة فى نفس المؤمن وأخلاقه:**

(أ) التزام الحق مع القريب والبعيد:

ومن ثمار هذه القوة النفسية ومظاهرها فى المؤمن، الصدق فى كل حال، والعدل فى كل حين، فهو يعترف بالخطأ إذا زلَّت به قدمه غير جاحد ولا مُكابر،

ولا مُبرِّر لخطئه بخطأ آخر، أو بإلقاء التهمة على غيره، وهو يقول الحق ولو كان مُرًّا، ويقوم لله شهيداً بالقسط ولو على نفسه أو الوالدين والأقربين، يعدل مع العدو عدله مع الصديق، لا يعرف التحيز ولا يعرف المحاباة.

أقام عمر بن الخطاب الحد على أحد أبنائه حتى قالوا: إنه مات فى يديه، وبعث النبى ﷺ عبد الله بن رواحة إلى خيبر، ليقوم بتقدير ثمر النخل فيها، إذ كان لهم نصفها، وللمسلمين نصفها، وقام عبد الله بالمهمة فقال: فى هذه كذا، وفى هذه كذا، فجمع اليهود له حليًّا من حُلِّى نسائهم وقالوا له: هذا لك، وخَفف عنا فى القسمة وتجاوز. فقال: يا معشر اليهود ... والله والله إنكم لمن أبغض خلق الله إلىَّ. وما ذاك بحاملى أن أحيف عليكم. أما الذى عرضتم له من الرشوة فإنها سُحت، وإنا لا نأكلها. فلم يملك اليهود إلا أن قالوا: بهذا قامت السموات والأرض.

وبلغ عمر بن عبد العزيز أن ابنًا له اشترى خاتمًا فصه بألف درهم، فبعث إليه يقول: أما بعد .. فقد بلغنى أنكَ اشتريتَ خاتمًا فصه بألف درهم، فإذا بلغكَ كتابى هذا فبعه وأطعم بثمنه ألف جائع! واشتر خاتمًا فصه من حديد .. واكتب عليه: رحم الله امرءاً عرف قدر نفسه.

(ب) الاستهانة بالقوى المادية:

ومن مظاهر هذه القوة شجاعته فى مواطن البأس وثباته فى موضع الشدة، لا تتزلزل له قدم، ولا يتزعزع له ركن، لا يخشى الناس قَلُّوا أو كثروا، ولا يُبالى بالأعداء، وإن أرغوا وأزبدوا، انسدت أبواب الخوف كلها فى نفسه، فلم يعد يخاف إلا من ذنبه، ومن سخط ربه.

إذا قيل له: إن أعداءك أكثر عدداً .. تلا قول الله: ﴿ **كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ** ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وإذا قيل: إنهم أكثر مالاً .. قرأ عليهم: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ**

﴿لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾

[الأنفال: ٣٦]

وإذا حذَّروه من مكرهم وكيدهم .. أجابهم بما قال الله: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤].

وإذا قيل إنهم أمنع حصونًا .. قرأ عليهم: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ [الحشر: ٢].

إنه يسير بمعونة الله، وينظر بنور الله، ويقاتل بسيف الله، ويرمى بقوة الله ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾

[الأنفال: ١٧]

إن المؤمن لا يستعبده منطق المادة، ولا لغة الأرقام، ولذا يُقدِّم من ألوان التضحيات وضروب البذل والفداء ما يعتبره بعض الناس تهوراً بل جنوناً.

روى ابن الأثير فى تاريخه أن المسلمين فى أثناء فتحهم لديار فارس حال نهر دجلة بينهم وبين «المدائن» وكانت السنة كثيرة المدود، ودجلة تقذف بالزَبد، فجمع سعد بن أبى وقَّاص الناس، فحمد الله وأثنى عليه وقال: «ألا إنى قد عزمتُ على قطع هذا البحر إليهم» فقالوا جميعًا: «عزم الله لنا ولك على الرُشد فافعل».

فَهبَّ الناس إلى العبور، وأذن لهم فى الاقتحام وقال: قولوا: نستعين بالله، ونتوَّكل عليه. حسبنا الله ونِعْمَ الوكيل، والله لينصرن الله وليه، ليظهرن دينه، وليهزمن عدوه، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

وتلاحق الناس فى دجلة، وهم يتحدثون كما يتحدثون فى البر، وطبقوا دجلة حتى ما يُرى من الشاطئ شىء.

ولقد كان الكافرون والمنافقون ينظرون إلى هذه الروح العالية التى يُبديها المسلمون، فينازلون العدد الكثير وهم قليل، ويتحدون السلاح والاستعداد، والقُوى غير متكافئة، بل غير متقاربة، فيظنون هذا غروراً، وما هو بالغرور، وإنما هى

قوة الإيمان بالله والتوكل عليه ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٤٩].

(جـ) الإخلاص فى القول والعمل :

ومن مظاهر هذه القوة . . إخلاصه القول والعمل والنية لوجه ربه، فتراه يعمل الخير، ويحارب الشر، وإن لم يكن له فيه نفع مادى، ولا هوًى شخصى، لا يهمه الشهرة ولا المحمدة ولا رضا الناس، بل يُؤثر الخفاء على الشهرة، وعمل السر على عمل العلانية، تجنبًا للرياء، وبُعدًا بالنفس عن مزالق الشرك الخفى، متمنيًا أن يكون ممن يحبهم الله، من الأبرار الأتقياء الأخفياء، الذين إذا حضروا لم يُعرفوا وإذا غابوا لم يُفتقدوا، محاولاً أن يكون كالجذع من الشجرة يمدها بالغذاء وهو فى باطن الأرض لا تراه العيون، وكالأساس من البنيان، يختفى فى الأعماق وهو الذى يمسك البناء أن يزول .

وفى بعض الآثار تصوير لطيف للقوة الروحية للإنسان حين يتجرد للحق، ويخلص له، تصوير جعله أثقل فى ميزان الحق من الأرض والجبال، والحديد والنار والماء . . يقول الأثر:

« لما خَلَقَ الله الأرض جعلت تميد وتتكفأ، فأرساها بالجبال فاستقرت، فتعجب الملائكة من شدة الجبال فقالت : يا ربنا؛ هل خلقتَ خلقًا أشد من الجبال؟ قال : نعم . الحديد . . قالوا : فهل خلقتَ خلقًا أشد من الحديد؟ قال نعم، النار . . قالوا : فهل خلقتَ خلقًا أشد من النار؟ قال : نعم، الماء . . قالوا : فهل خلقتَ خلقًا أشد من الماء؟ قال : نعم، الريح . قالوا : فهل خلقتَ خلقًا أشد من الريح؟ قال : نعم ابن آدم . . إذا تَصدَّق صدقة بيمينه فأخفاها عن شماله » .

الإنسان إذا أخلص لربه أشد قوة من الجبال المرساة فى الأرض كالأوتاد، ومن الحديد القوى الذى يقطع الجبال، وتُنحت به الصخور، ومن النار المتأججة التى تُذيب الحديد، ومن الماء المتدفق الذى يُطفئ النار، ومن الريح العاصف الذى يسوق المياه .

ومن مظاهر هذه القوة عند المؤمن وضوح خطته، واستقامة طريقته، وثباته عليها، لا يغريه وعد، ولا يثنيه وعيد، ولا ينحرف به طمع متسلط، أو هوًى جائر، أو شهوة طاغية، فهو دائمًا داع إلى الخير، ثائر على الشر، آمر بالمعروف، ناه عن المنكر، هاد إلى الحق والعدل، مقاوم للباطل والظلم، يُغيِّر المنكر بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان.

(د) التحرر من الخوف والحرص:

ومن ثمار هذه القوة التحرر من الخوف والحرص. فلقد رأينا الناس لا يُضعف نفوسهم شيء كالحرص على الحياة وإن تكن ذليلة، والهرب من الموت وإن كان كريما ، ولا يغرس فيهم القوة شيء كالاستهانة بالحياة والإقبال على الموت في سبيل الحق الذى يعتقدونه، ولا شيء كالإيمان بالله وبالخلود يهون على الإنسان لقاء الموت، وفراق الحياة.

والمرء إذا هانت عليه الدنيا، ولم يُبال بالموت ... هان عليه جبابرة الأرض، وملوك الناس، ونظر إلى الذهب كما ينظر إلى الحجر، وإلى السيف كما ينظر إلى العصا أو هو أدنى.

الحرص والخوف هما اللَّذان يُضعفان النفوس، ويحنيان الرؤوس، ويذلان الأعناق. وإذا لم يكن حرص ولا خوف فلا سبيل إلى الضعف بحال.

وقد رأينا سحرة فرعون حين آمنوا بالله والآخرة استهانوا بالدنيا ولم يجزعوا من الموت، يقولون لفرعون وهم في ثبات الجبال: ﴿ **فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا** ﴾ [طه: ٧٢] .. إنهم لا يحرصون على شيء عنده، ولا يخافونه على شيء عندهم، فلماذا يهنون أو يضعفون؟ كلا .. لقد انقلبوا من أتباع له إلى دعاة له يبشرون وينذرون ﴿ **إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ** ﴾ [طه: ٧٣].

(هـ) الاستخفاف بالجبابرة والطغاة:

ولقد برزت هذه القوة في مقاومة المؤمنين للطغاة في الداخل، أو الغزاة من الخارج، ورأينا ذلك بارزاً للعيان في أمثلة شتَّى .. في القديم والحديث.

طلب الخليفة الأموى الشهير «هشام بن عبد الملك» طاووس اليمانى يومًا إلى مجلسه، فلما دخل عليه، لم يُسلِّم عليه بإمرة المؤمنين، ولكن قال: «السلام عليك يا هشام» وجلس بإزائه، وقال: كيف أنتَ يا هشام؟ فغضب هشام غضبًا شديداً حتى هَمَّ بقتله، وقال له: يا طاووس؛ ما الذى حملك على ما صنعتَ؟ قال: وما الذى صنعتُ؟ فازداد غضبًا وغيظًا، وقال: خلعتَ نعليك بحاشية بساطى، ولم تُقَبِّل يدى، ولم تُسلِّم علىَّ بإمرة المؤمنين، ولم تُكنِّنى، وجلستَ بإزائى بغير إذنى، وقلت: كيف أنت يا هشام، قال: أما ما فعلتُ من وضع نعلى بحاشية بساطك، فإنى أضعهما بين يدى رب العزة كل يوم خمس مرات، وأما قولك: لم تُقَبِّل يدى، فإنى سمعتُ عليًّا بن أبى طالب رضى الله عنه يقول: «لا يحل لرجل أن يُقَبِّل يد أحد إلا امرأته من شهوة، أو ولده من رحمة»، وأما قولك: لم تُسلِّم علىَّ بإمرة المؤمنين، فليس كل الناس راضين بإمرتك، فكرهتُ أن أكذب، وأما قولك: جلستَ بإزائى. فإنى سمعتُ أمير المؤمنين عليًّا يقول: «إذا أردتَ أن تنظر إلى رجل من أهل النار فانظر إلى رجل جالس وحوله قوم قيام». فقال هشام: عظنى ... فقال: سمعتُ من أمير المؤمنين علىّ رضى الله عنه أن فى جهنم حيات كالقلال، وعقارب كالبغال، تلدغ كل أمير لا يعدل فى رعيته – ثم قام.

وفى تاريخنا الحديث رأينا أبطالاً فى صور شتَّى، وفى بلاد عديدة، كلهم تحرروا من الخوف والطمع واستهانوا بالدنيا وما فيها ومن فيها، رغبة فيما عند الله ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨].

رأينا البطل الليبى «عمر المختار» الذى حارَب الاستعمار الإيطالى، وجيوشه المجهزة بأحدث أسلحة عصره، بالقلة المؤمنة العزلاء، أو شبه العزلاء من جنده: وقف يحارب الطائرة بالحصان، والمدفع بالسيف. واستطاع أن يُنزل بأعدائه ضربات موجعة، ولم يرض بالتسليم ساعة ما، رغم نفاد قوَّته المادية كلها، ولكنه ظل يقول للطليان: «لئن كسر المدفع سيفى فلن يكسر الباطل حقى».

وكان مريضًا بالحمى، تهز رعدتها جسده، وترتعد بها فرائصه، ورغم هذا

قال لجنوده: «اربطونى على ظهر جوادى بالحبال حتى لا أتخلف عن القتال معكم».

وحين ظفر به الجيش المستعمر - وحكموا عليه بالإعدام، تقبَّل الحكم برحابة صدر، وابتسامة سخرية، وقال له بعضهم - قبل تنفيذ الحكم -: اطلب العفو ونحن نُطلق سراحك، فأجابهم بكل إباء وشمم: «لو أطلقتم سراحى لعدتُ لمحاربتكم من جديد».

ورأينا فى الهند عالمًا جليلاً كمولانا أبى الكلام آزاد يقف أمام المحكمة الإنجليزية التى عُقدت لمحاكمته على ما قام به من إثارة وتحريض للشعب ضد الحكم البريطانى، فيُلقى على هيئة المحكمة خطابا رائعًا فى نحو ست وثلاثين صفحة[1]، يُعتبر آية من آيات العزة الإيمانية، وكان مما قاله فى هذا الخطاب التاريخى العظيم:

«نعم إنى قلتُ إن الحكومة الحاضرة ظالمة، وإن لم أقل هذا فماذا أقول يا تُرى؟ وايم الله إنى لأعجبُ كيف يُطلب منى أن أسمى شيئًا بغير اسمه، وأن أدعو الأسود بالأبيض؟

إنى مسلم، ولأنى مسلم وجب علىَّ أن أندِّد بالاستبداد وأقبِّحه، وأشهر مساويه..

إن الإسلام أعلن «حقوق الإنسان» قبل انقلاب فرنسا بأحد عشر قرنًا، وليس مجرد إعلان، بل وضع نظامًا عمليًّا لجمهورية الحق بالغًا فى الكمال منتهاه.

ولعمرى إن مطالبة مسلم بأن يسكت عن الحق، ولا يُسمى الظلم ظلمًا، مثل مطالبته بأن يتنازل عن حياته الإسلامية، فإن كنتم لا ترون لأنفسكم أن تُطالبوا أحداً بأن يرتد عن دينه، فليس لكم أن تُطالبوا مسلمًا بأن يمتنع عن قوله للظلم: إنه ظلم، لأن معنى كلتا المطالبتين واحد.

إن التصديق بالحق وإعلانه عنصر ضرورى للحياة الإسلامية، فإن فُصِلَ عنها فقدت أكبر ما تمتاز به لأن الإسلام أسس قومية المسلم عليه، وجعلهم شهداء الحق

---

(١) نشرته مجلة «ثقافة الهند» فى عدد مارس (يونيو ١٩٥٨) ص ٨٨ - ١٢٤.

على العالم كله، فكما يجب على الشاهد ألا يتوانى فى إبداء شهادته كذلك يتحتم على المسلم ألا يُقَصِّر فى إعلاء الحق، ولا يُبالى فى أداء فرضه بمصيبة أو بلاء، بل يصدع به حيثما كان، ولو لاقى دونه الحِمام.

ولهذا نجد «الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» من أكبر الفرائض الإسلامية.

التوحيد أساس الإسلام وقُطب رحاه، وضده الشرك الذى أشرب المسلمون بُغضه فى قلوبهم.

والتوحيد يُعلِّم المسلمين أن الخوف والخشوع لا يكون إلا لله الواحد العظيم، أما غيره فلا يخاف منه ولا يخشع له، وأن من يخشى غير الله فهو مشرك به، وجاعل غيره أهلاً للخوف والطاعة، وهذا ما لا يجتمع مع التوحيد أبداً.

الإسلام من أوله إلى آخره دعوة عامة، إلى البسالة والجرأة والتضحية، والاستهانة بالموت فى سبيل الحق.

والقرآن يكرر مرة أخرى: ﴿ **وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا** ﴾ [الأحزاب: ٣٩] ﴿ **وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ** ﴾ [التوبة: ١٨]، ﴿ **وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ** ﴾ [المائدة: ٥٤]، ﴿ **أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ** ﴾ [الزمر: ٣٧].

والرسول ﷺ يقول: «سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله» (رواه الحاكم على شرط الصحيحين)، «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر» (رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه). وقد كان ﷺ يأخذ العهد من أصحابه أن يقولوا الحق أينما كانوا (متفق عليه).

وقد ابيضت عين الدهر، ولم تر مثل هذه الضحايا الكثيرة العظيمة فى إعلاء كلمة الحق، التى تُقدمها الأمة الإسلامية فى كل دور من حياتها. فتراجم علمائها ومشايخها وسادتها عبارة عن هذه الضحايا.

ألا فلتعلم الحكومة الإنجليزية أن المسلم الذى أمره ربه أن يُرحِّب بالموت

الأحمر، ويتغلغل فى لجج الدواهى والكوارث، ولا يقبل السكوت عن الحق، لا يُخيفه قانون ١٢٤ من العقوبات الهندية [١]، ولا يرده عن دينه وأداء فريضته».

وظل أبو الكلام يهدر كالبحر، ويرسل حججه وكلماته شواظًا من نار، يمده بالقوة إيمانه بالله وبالحق، وبالقَدَر وبالخلود .. ثم التفت إلى القاضى وقال: «وأنت أيها القاضى، ماذا عسى أن أقول لك إلا ما قاله المؤمنون قبلى فى مثل موقفى هذا ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [طه: ٧٢].

● **شهادة التاريخ:**

ذلك هو شأن الإيمان إذا عمقت جذوره، وقوى سلطانه على النفس، إنه يمد صاحبه بيقين لا يهن، وهمة لا تنى، وأمل لا يخبو، ودافع لا يتوقف، وعزم لا يخور. وهو يملك الدنيا ولكنها لا تملكه، ويجمع المال ولكنه لا يستعبده، وتحيط به النعمة ولكنها لا تُبطره، وينزل به البلاء ولكنه لا يقهره، لا تزيده الشدائد إلا عزيمة مع عزيمته، وقوَّة إلى قوته، كالذهب الأصيل، لا تزيده النار إلا نقاءً وصفاءً.

من كان يُصدِّق أن مجموعة قليلة العدد، ضئيلة العُدَّة، من جزيرة العرب، لم يكن لهم فلسفة اليونان، ولا مدنية الرومان، ولا حكمة الهند، ولا صنعة الصين، تملك الدنيا بزمام، وترث مُلك الأكاسرة، وتحطم إمبراطورية القياصرة، وتنشر دينًا جديداً، وحضارة جديدة فى الآفاق، وفى أقل من ربع قرن من الزمان؟

أليس سر هذا هو الإيمان؟ الإيمان الذى جعل من بلال الحبشى قوَّة يتحدى «سيده» أمية بن خلف ويحارب أبا جهل بن هشام .. الإيمان الذى جعل القلة تنتصر على الكثرة، والأميين يغلبون المتحضرين، ودفع العرب البُداة، ويقينهم فى قلوبهم، ومصاحفهم فى يد، وسيوفهم فى أخرى، ومساكنهم على ظهور خيولهم يقولون لملوك الفُرس وأباطرة الروم: نحن قوم بعَثَنا الله لنُخرجكم من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده.

---

(١) الذى كان يحاكم على أساسه.

● **سر الوَهَن:**

وإذا كان الزمن قد تغيَّر على المسلمين، فانكمشوا بعد امتداد، ووهَنوا بعد قوة، فلأن الإيمان لم يعد هو المسيطر على أنفسهم، والموَّجه لأخلاقهم وسلوكهم. لقد بات إيمانهم إيمانًا «جغرافيًّا» بحكم ولادتهم فى أرض المسلمين، أو إيمانًا «وراثيًّا» يأخذونه عن آبائهم كما يرثون الدور والعقارات، بات إيمانًا مُخَدراً نائمًا لا تأثير له، ولا حيوية فيه، فكيف يورث القوة، ويهب للنفس العزيمة والمضاء؟

لقد كشف الرسول ﷺ لأمته عن الأسباب العميقة لضعفها حين تضعف، وهَوانها حين تهون على أعدائها، فقال – وصدَّق الزمن ما قال – عليه السلام: «يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأَكَلَةُ إلى قصعتها». قالوا: أمِنْ قِلَّةٍ نحن يومئذٍ يا رسول الله؟ قال: «بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غُثاء كغُثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن فى قلوبكم الوَهَن». قالوا: وما الوهَن؟ – أى ما سببه وما سره فإن معنى الوَهَن معروف وهو الضعف – قال: «حبُّ الدنيا وكراهية الموت».

هذا هو مبعث الوَهَن الحقيقى، وسر الضعف الأصيل، أن يخلد المرء إلى دنياه الخاصة، فيعيش عبداً لها مطواعًا لأوضاعها الرتيبة، أسيراً لقيودها الثقيلة، تُحَرِّكُهُ الشهوات كالخاتم فى الإصبع، وتُسَيِّرُهُ الرغائب المادية كالثور فى الساقية، يتحرك فى مدار محدود، فاقد الهدف معصوب العينين.

حبُّ الدنيا هو الذى يجعل الملك فى صولجانه عبداً ضعيفًا، رخو العود، أمام امرأة يعشقها، أم شهوة يطمع فى نيلها، أو نديم يخشى أن يفضحه، أو حاشية تُعينه على سرقاته ونزواته.

وكراهية الموت هى التى تجعل الأفراد والجماعات يؤثرون حياة ذليلة على موت كريم، يؤثرون حياة يموتون فيها كل يوم موتات، على موت يحيون بعده حياة الخلود.

ومن لا يمت تحت السيوف مُكَرَّمًا يعش ويقاسى الذل غير مُكَرَّمٍ

● **التماوت والضعف يُنافى الإيمان:**

وقد يرى المرء أناسًا – ممن يتمسحون بالدين، ويدَّعون الانتساب إليه، بل إلى لبه وحقيقته – يبدو عليهم الضعف والتماوت، والتخشع والتذلل والذبول، فيظن مخطئًا ومعذورًا أن هؤلاء صورة صحيحة للمؤمنين.

والواقع أن الإيمان الحق برىء من هذه الصور الزائفة، وتلك المظاهر الكاذبة. الإيمان قوة فى الباطن والظاهر، فى الخُلُقِ والسلوك، فى المَخْبرِ والمَظْهرِ معًا.

رأى عمر رجلاً متماوتًا فى صلاته، مطأطئًا رقبته. مُبديًا التذلل والتخشع، فما كان منه إلا أن علاه بدرته وقال: لا تُمِتْ علينا ديننا، أماتَك الله. ارفع رأسك. فإن الخشوعَ فى القلوب ليس الخشوع فى الرِقاب.

وكان من كلماته المأثورة: اللَّهم إنى أعوذُ بك من خشوع النفاق. فقيل له: وما خشوع النفاق؟ قال: أن يُرى البدن خاشعًا، والقلب ليس بخاشع.

ورأت الشَفَّاء بنت عبد الله بعض الفتيان يمشون متماوتين، فقالت فى دهش: ما هؤلاء؟ فقيل لها: هؤلاء نُسَّاك (عُبَّاد). فقالت: لقد كان عمر إذا مشى أسرع، وإذا تكلم أسمع، وإذا ضرب أوجع، وكان هو الناسك حقًّا.

وكان رسول الله ﷺ – مع وقاره وسمو هيبته – إذا مشى أسرع فى مشيته، كأنما ينحدر من صَبب.

ويقول أبو هريرة: «ما رأيتُ أحدًا أحسن من رسول الله ﷺ – كأن الشمس تجرى فى وجهه – ولا رأيتُ أحدًا أسرع فى مشيته منه، كأنما الأرض تُطوى له، وإنا لنُجهِد أنفسنا، وإنه لغير مكترث».

* * *

الرحمة

الإنسان من غير قلب أشبه بالآلة الصمَّاء، والحجر الصلد، فإن حقيقة الإنسان ليست فى هذا الغلاف الطينى من لحم ودم وعظم، وإنما هى تلك اللَّطيفة الربانية، والجوهرة الروحية، التى بها يحس ويشعر وينفعل ويتأثر، ويتألم ويرحم، هى القلب الحى.

ومن أخص أوصاف المؤمن أنه يتميز بقلب حى مرهَف ليِّنٌ رحيم، يتجاوَب به والأحداث والأشخاص، فيرق للضعيف، ويألم للحزين، ويحنو على المسكين، ويمد يده إلى الملهوف، وبهذا القلب الحى الرحيم ينفر من الإيذاء، وينبو عن الجريمة، ويصبح مصدر خير وبر وسلام لما حوله ومَن حوله.

● **رحمة المؤمن من رحمة الله تعالى:**

المؤمن إنسان ذو قلب رحيم، لأن مَثَلَهُ الأعلى أن يتخلق بأخلاق الله تعالى، وأن يكون له حظ من أسمائه الحُسنى.

ومن أوضح الأخلاق الإلَهية «الرحمة» التى وسعت كل شىء، وشملت المؤمن والكافر، والبَّر والفاجر، واستوعبت الدنيا والآخرة. وقد قرَّب الرسول لأصحابه هذا المعنى – على طريقته فى انتهاز الأحداث والمناسبات فرصًا لغرس المبادئ والمعانى التى يريدها – حيت قدموا عليه مرة بسبى، وإذا امرأة تسعى، قد تحلَّب ثديها، إذ وجدت صبيًّا فى السبى، فأخذته فألزقته ببطنها فأرضعته، فقال رسول الله ﷺ: «أترون هذه المرأة طارحة ولدها فى النار»؟ قالوا: لا – وهى تقدر على ألا تطرحه – قال: «فالله أرحم بعباده من هذه بولدها». (رواه البخارى).

من أبرز أسماء الله الحُسنى «الرحمن الرحيم» وهما أشهر الأسماء بعد لفظ

الجلالة «الله» والمؤمن بالقرآن كلما تلا كتاب الله أو بدأ سورة منه. افتتحها بـ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ فى مائة وثلاث عشرة سورة منه.

وحسبنا أن يردد هذين الاسمين فى صلاته المكتوبة ما لا يقل عن أربع وثلاثين مرة فى اليوم، فهو كلما أدَّى ركعة قرأ فاتحة الكتاب: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ [الفاتحة: ١-٣] وهى سبع عشرة ركعة فى الصلوات الخمس المفروضة على المسلم فى يومه، فإذا أدَّى السُّنَن زاد ضعف ذلك، فإذا رغب في النافلة، زاد ما شاء الله أن يزيد.

ولهذين الاسمين الكريمين «الرحمن الرحيم». إيحاء قوى فى نفس المؤمن، فضلا عما تُوجبه عليه عبوديته لله أن يكون له حظ من أسمائه تعالى.

وللإمام الغزالى كتاب سمَّاه «المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى» يشرح فيه الاسم الإلَهى ثم يُعقِّب بما يمكن أن يكون حظ الإنسان من هذا الاسم.

وبعد أن شرح معنى الاسمين «الرحمن الرحيم» قال: وحظ العبد من اسم «الرحمن» أن يرحم عباد الله الغافلين، فيصرفهم عن طريق الغفلة إلى الله بالوعظ والنُّصح بطريق اللُّطف دون العنف، وأن ينظر إلى العصاة بعين الرحمة، لا بعين الإيذاء، وأن يرى كل معصية تجرى فى العالم كمعصية له فى نفسه، فلا يألوا جهداً فى إزالتها بقدر وسعه، رحمة لذلك العاصى من أن يتعرض لسخط الله تعالى، أو يستحق البُعد عن جواره.

«وحظ العبد من اسم «الرحيم» ألا يدع فاقة لمحتاج إلا ويسدها بقدر طاقته، ولا يترك فقيراً فى جواره أو فى بلده، إلا ويقوم بتعهده ودفع فقره، إما بماله، أو جاهه، أو الشفاعة إلى غيره، فإن عجز عن جميع ذلك، فيُعينه بالدعاء، وإظهار الحزن، رقة عليه وعطفًا، حتى كأنه مساهم له فى ضره وحاجته».

● **من لا يَرحم لا يُرحم:**

والمؤمن يعتقد أنه دائمًا فقير إلى رحمة الله تعالى، فبهذه الرحمة الإلهية يعيش فى الدنيا ويفوز فى الآخرة، ولكنه يُوقن أن رحمة الله لا تُنال إلا برحمة

الناس «إنما يرحم الله من عباده الرحماء»، و«من لا يَرحم لا يُرحم»، «ارحموا مَن فى الأرض يرحمكم مَن فى السماء».

ورحمة المؤمن لا تقتصر على إخوانه المؤمنين – وإن كان دافع الإيمان المشترك يجعلهم أولى الناس بها – وإنما هو ينبوع يفيض بالرحمة على الناس جميعًا. وقد قال رسول الإسلام لأصحابه: «لن تُؤمنوا حتى ترحموا. قالوا: يا رسول الله؛ كلنا رحيم. قال: «إنه ليس برحمة أحدكم صاحبه ولكنها رحمة العامة». (رواه الطبرانى). ومن صفات المؤمنين فى القرآن: ﴿**وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ**﴾ [البلد: ١٧].

بل هى رحمة تتجاوز الإنسان الناطق إلى الحيوان الأعجم، فالمؤمن يرحمه ويتقى الله فيه، ويعلم أنه مسؤول أمام ربه عن هذه العجماوات. وقد أعلن النبى لأصحابه أن الجنة فتحت أبوابها لبغى سقت كلبًا فغفر الله لها، وأن النار فتحت أبوابها لامرأة حبست هرة حتى ماتت، فلا هى أطعمتها، ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض. فإذا كان هذا عقاب من حبس هرة بغير ذنب، فماذا يكون عقاب الذين يحبسون عشرات الألوف من بنى الإنسان بغير حق إلا أن يقولوا: ربنا الله؟!

وقال رجل: يا رسول الله؛ إنى لأرحم الشاة أن أذبحها. فقال: «إن رحمتها رحمك الله» (رواه الحاكم).

ورأى عمر رجلاً يسحب شاة برجلها ليذبحها فقال له: «ويلك .. قدها إلى الموت قوداً جميلاً».

ويروى المؤرخون أن عمرو بن العاص فى فتح مصر نزلت حمامة بفسطاطه – خيمته – فاتخذت من أعلاه عشًّا، وحين أراد عمرو الرحيل رآها، فلم يشأ أن يهيجها بتقويضه، فتركه وتكاثر العمران من حوله، فكانت مدينة «الفسطاط».

ويروى ابن عبد الحكم فى سيرة الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز أنه نهى عن ركض الفرس إلا لحاجة. وأنه كتب إلى صاحب السكك: أن لا يحملوا أحداً بلجام ثقيل، ولا ينخس بمقرعة فى أسفلها حديدة. وكتب إلى واليه بمصر: إنه

بلغنى أن بمصر إبلا نقَّالات يُحمل على البعير منها ألف رطل، فإذا أتاكَ كتابى هذا، فلا أعرفن أنه يُحمل على البعير أكثر من ستمائة رطل.

هذه الرحمة الدافقة الشاملة أثر من آثار الإيمان بالله والآخرة، ذلك الإيمان الذى يُرَقِّق بنفحاته القلوب الغليظة، ويُلَيِّن الأفئدة القاسية.

أرأيت إلى عمر – وقد كان معروفا بالشدة والقسوة فى جاهليته – كيف صنع الإيمان به، ففجَّر ينابيع الرحمة والرِّقة فى قلبه. لقد قالوا: إنه وأد بنتًا له فى الجاهلية، فلما ولِىَ إمارة المؤمنين كان يرى نفسه مسؤولاً أمام الله عن بغلة تعثر بأقصى البلدان.

ولقد غلبت هذه العقيدة وهذا الخُلُق على أعمال المسلمين الأوَّلين، ووضحت آثارها فى سلوكهم حتى مع الأعداء المحاربين، فنجد رسول الإسلام يغضب حين مَرَّ فى إحدى غزواته، فوجد إمرأة مقتولة فقال: «ما كانت هذه لتقاتل»، وينهى عن قتل النساء والشيوخ والصبيان، ومن لا مشاركة له فى القتال.

ويسير أصحابه على نفس النهج أبرارًا رحماء لا فُجَّارًا قُساة. فهذا أبو بكر يُودِّع جيش أسامة بن زيد ويُوصيهم قائلاً: «لا تقتلوا امرأة ولا شيخًا ولا طفلاً، ولا تعقروا نخلاً، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، وستجدون رجالاً فرَّغوا أنفسهم فى الصوامع، فدعوهم وما أفرغوا أنفسهم له». ويقول عمر: «اتقوا الله فى الفلاحين الذين لا ينصبون لكم الحرب».

ويُحمل إلى أبى بكر رأس مقتول من كبراء الأعداء المحاربين. فيستنكر هذا العمل، ويعلن سخطه عليه ويقول لمن جاءه بالرأس: لا يُحمل إلىَّ رأس بعد اليوم. فقيل له: إنهم يفعلون بنا ذلك. فقال: فاستنان (أى اقتداء) بفارس والروم؟ إنما يكفى الكتاب والخبر.

وهكذا كانت الحرب الإسلامية حربًا رحيمة رفيقة، لا يُراق فيها الدم إلا ما تدعو الضرورة القاهرة إليه، وقد لاحظ ذلك الفيلسوف الفرنسى جوستاف لوبون فقال: ما عرف التاريخ فاتحًا أعدل ولا أرحم من العرب!.

● **من آثار الرحمة فى المجتمع الإسلامى:**

كما برز أثر ذلك الخُلُق العظيم فى العلاقات الاجتماعية الداخلية – فرأينا المجتمع المسلم تسوده عواطف كريمة، ومشاعر نبيلة، كلها تفيض بالرفق والمرحمة، وتتدفق بالبر والخير، وتجلت هذه المشاعر والعواطف فيما عُرف بنظام «الوقف الخيرى» عند المسلمين.

فقد مضى المواسون من المؤمنين – بدافع الرحمة التى قذفها الإيمان فى قلوبهم، والرغبة فى مثوبة الله لهم، وألا ينقطع عملهم بعد موتهم – يقفون أموالهم كلها أو بعضها على إطعام الجائع، وسقاية الظمآن، وكسوة العريان، وإيواء الغريب، وعلاج المريض، وتعليم الجاهل، ودفن الميت، وكفالة اليتيم، وإعانة المحروم، وعلى كل غرض إنسانى شريف، بل لقد أشركوا فى برهم الحيوان مع الإنسان.

ولقد تأخذ أحدنا الدهشة وهو يستعرض حُجج الواقفين ليرى القوم فى نبل نفوسهم، ويقظة ضمائرهم، وعلو إنسانيتهم، بل سلطان دينهم عليهم، وهم يتخيرون الأغراض الشريفة التى يقفون لها أموالهم، ويرجون أن تُنفق فى سبيل تحقيقها هذه الأموال.

وربما استشرفت النفوس إلى أمثلة من هذا البر يُعين ذكرها على تفصيل هذا الإجمال. فإلى هذه النفوس المستشرفة أسوق هذه الأمثلة:

● **وقف الزبادى:**

وقف تُشترى منه صحاف الخزف الصينى، فكل خادم كُسِرَت آنيته، وتعرَّض لغضب مخدومه، له أن يذهب إلى إدارة الوقف فيترك الإناء المكسور، ويأخذ إناءً صحيحًا بدلاً منه.

● **وقف الكلاب الضالة:**

وقف فى عدة جهات يُنفق من ريعه على إطعام الكلاب التى ليس لها صاحب استنقاذًا لها من عذاب الجوع، حتى تستريح بالموت أو الاقتناء.

● **وقف الأعراس:**

وقف لإعارة الحُلِّى والزينة فى الأعراس والأفراح، يستعير الفقراء منه ما يلزمهم فى أفراحهم وأعراسهم، ثم يُعيدون ما استعاروه إلى مكانه. وبهذا يتيسر للفقير أن يبرز يوم عرسه بحُلَّة لائقة ولعروسه أن تجلى فى حُلَّةٍ رائقة، حتى يكتمل الشعور بالفرح، وتنجبر الخواطر المكسورة.

● **وقف الغاضبات:**

وقف يُؤسس من ريعة بيت. ويُعَد فيه الطعام والشراب، وما يحتاج إليه الساكنون، تذهب إليه الزوجة التى يقع بينها وبين زوجها نفور، وتظل آكلة شاربة إلى أن يذهب ما بينها وبين زوجها من الجفاء وتصفو النفوس، فتعود إلى بيت الزوجية من جديد.

● **وقف مؤنس المرضى والغرباء:**

وقف يُنفق منه على عدة مؤذنين، من كل رخيم الصوت حسن الأداء، فيُرتلون القصائد الدينية طول اللَّيل، بحيث يُرتل كل منهم ساعة، حتى مطلع الفجر، سعيًا وراء التخفيف عن المريض الذى ليس له من يُخَفف عنه، وإيناس الغريب الذى ليس له من يُؤنسه.

● **وقف خداع المريض:**

وقف فيه وظيفة من جملة وظائف المعالجة فى المستشفيات، وهى تكليف اثنين من الممرضين أن يقفا قريبًا من المريض، بحيث يسمعهما ولا يراهما، فيقول أحدهما لصاحبه: ماذا قال الطبيب عن هذا المريض؟ فيرد عليه الآخر: إن الطبيب يقول: إنه لا بأس فهو مرجو البرء، ولا يوجد فى علته ما يُشغل البال، وربما نهض من فراش مرضه بعد يومين أو ثلاثة أيام.

وهكذا سلك الواقفون كل مسالك الخير، فلم يدعوا جانبًا من جوانب الحياة دون أن يكون للخير نصيب فيه.

وبهذا إنما يصدرون عن إحساسات إنسانية عميقة، تنفذ إلى موطن الحاجة التى تعرض للناس فى كل زمان ومكان.

ولا شك أن العقيدة هى صاحبة الفضل فى خلق هذه الأحاسيس الرقيقة، وإيقاظ تلك المشاعر السامية التى تنبهت لتلك الدقائق، فى كل زاوية من زوايا المجتمع وكل منحى من مناحى الحياة، ولم يكفهم أن يكون برهم مقصوراً على حياتهم القصيرة، فأرادوا صدقة جارية، وحسنة دائمة، يُكتب لهم أجرها ما بقيت الحياة وبقى الإنسان.

● **الجرائم البشعة وليدة الكفر والقسوة:**

إن القلوب المؤمنة لا تخلو من رحمة، والكفر بالله والآخرة ينبعه قلب غليظ قاس، والقلوب القاسية هى التى ترتكب عادة أبشع الجرائم التى تقشعر لهولها الأبدان.

ولو قلَّبنا صفحات التاريخ لوجدنا الجرائم المروِّعة فيه إنما اقترفها أناس لا يرجون لله وقاراً، ولا يحسبون للآخرة حساباً. فرعون الطاغية المتكبر الجبار الذى ذبح الأبناء، واستحيا النساء، لم يكن يؤمن بالرجوع إلى الله فى الآخرة، فصنع ما صنع ﴿ **وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ** ﴾ [القصص: ٣٩]

﴿ **وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ** ﴾ [غافر: ٢٧].

و«نيرون» الذى أحرق روما، و«لينين» الذى قال فى بعض رسائله إلى مكسيم جوركى: إن قتل ثلاثة أرباع العالم يهون فى سبيل أن يصبح الربع الباقى شيوعيًّا.

والمذابح التى صنعها الماديون الشيوعيون فى الموصل وكركوك بالعراق من دفن الناس أحياء، وجر الجثث فى الشوارع (السحل) أوضح شاهد على جمود القلوب عند الماديين.

وثورة المجر وما أريق فيها من دماء دليل آخر [١].

بل ما يحدث من الشيوعيين أنفسهم بعضهم لبعض دليل واضح على أن قلوبهم كالحجارة، أو أشد قسوة، كتب الصحفى المعروف «على أمين»[٢] يقول: فى كتاب «ماذا يحدث للشيوعيين» الذى ألّفه الكاتب الروسى «ميشيل ياديف» إحصاء غريب عن عدد الذين أعدمهم ستالين من أنصاره بعد وفاة لينين.

فقد أعدم ستالين جميع أعضاء أول مجلس إدارة للحزب اجتمع بعد وفاة لينين، وأجمع على انتخاب ستالين.

وأعدم كل وزراء لينين واتهمهم بالخيانة.

وأعدم ٨٠ بالمائة من سكرتيرى اتحادات العمال الذين اجتمعوا وباركوا انتخابه.

وأعدم ١٥ عضواً من الـ ٢٧ عضواً الذين تألفت منهم اللجنة التى وضعت دستور ١٩٣٦.

وأعدم ٤٣ سكرتيراً من ٥٣ سكرتيراً، الذين يُشرفون على تنظيمات الحزب الشيوعى.

وأعدم ٧٠ من ٨٠ عضواً من أعضاء مجلس الدفاع السوفييتى.

وأعدم ثلاثة مارشالات من خمسة مارشالات فى الجيش الأحمر.

وأعدم ٩ وزراء من الـ ١١ وزيراً الذين كان يتألف منهم مجلس وزرائه عام ١٩٣٦.

وأعدم ٦٠ بالمائة من قوّاد الجيش الأحمر وثلاثين ألف موظف من موظفى الحكومة.

---

(١) وما يُريقه الشيوعيون فى أفغانستان المسلمة الآن – ١٩٩٠ – من دماء المسلمين أقوى دليل على ذلك (الناشر).

(٢) كتاب «أفكار للبيع» ص ١٤١ تحت عنوان: «أنصار الطغاة» لعلى أمين.

وهكذا كان النظام الشيوعى يأكل نفسه بسرعة منقطعة النظير.

والسر فى كل هذا هو أن لا حرية فى روسيا، وأن الحاكم يستطيع أن يحكم على كل من يخالفه، وأن يقضى عليه دون أن يُقاضيه، ودون أن يسمح لأى صوت حر أن يعترض، ويقول له: «قف، تعال نحتكم معًا إلى العدالة».

ويقول: إن فقدان الحرية ليس وحده سر هذه الجرائم البشعة والمجازر الرهيبة، فقد حكم شعوبًا كثيرة مستبدون كثيرون ولكنهم لم يصنعوا بأعدائهم ما صنع هؤلاء بأنصارهم، وذوى حزبيتهم، ولكنها قلوب أقفرت من الإيمان، فأقفرت من الرحمة ورعاية الإنسان لأخيه الإنسان.

● **مثلان من أمثلة الرحمة المؤمنة:**

أين هذه القسوة الرجيمة، والقلوب الصخرية من تلك القلوب الرقيقة اللينة التى تخشى الله وترجو الآخرة، وتؤمن أنها إن سلمت من حساب الدنيا فلن تسلم من حساب يوم القيامة. وإن أفلتت من يد الانتقام هنا، فلن تفلت من يد العدل هناك؟ وأنها لا تكتفى أن تقف فى مرتبة العدل، والقصاص بالمثل، ولكنها تتطلع إلى درجة الفضل والعفو ﴿**وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ**﴾ [النحل: ١٢٦]، ﴿**وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ**﴾ [الشورى: ٤٠].

وإذا كان لنا أن نضرب أمثلة من تاريخ العقيدة الزاهرة، وعملها فى الأنفس والقلوب فإنا نكتفى فى هذا المقام بمثلين اثنين من خلفاء المسلمين.

● **المثل الأول:**

ما صنعه أمير المؤمنين عثمان بن عفَّان، وقد حاصر داره الثائرون، الذين عملت فيهم الدعاية اليهودية السبئية عملها، ودفعتهم إلى الثورة المسلحة على الخليفة الشيخ، ولكن الخليفة أبى أن يُقابل القوة بالقوة، والسلاح بالسلاح، وإن أدَّى ذلك إلى إراقة دمه. ذكروا أن عبد الله بن عمر لبس درعه وتقلد سيفه

« يوم الدار » وهو الاسم الذى أطلق على يوم محاصرة عثمان فى داره لقتله – فعزم عثمان عليه أن يخرج، ويضع سلاحه، ويكف يده، ففعل.

ودخل عليه زيد بن ثابت فقال: إن هذه الأنصار بالباب، وتقول: إن شئتَ كنا أنصار الله مرتين. قال: لا حاجة لى، كُفُّوا.

وعن عامر بن ربيعة قال: كنتُ مع عثمان فى الدار، فقال: أعزم على كل من رأى أن لى عليه سمعًا وطاعة أن يكف يده، ويلقى سلاحه ... فألقى القوم أسلحتهم.

وقال بعض أنصاره: نهانا عثمان عنهم (الثوَّار) ولو أذن لنا عثمان فيهم لضربناهم حتى نُخرجهم من أقطارنا.

وهكذا رفض الخليفة إراقة الدماء، ولو كان ذلك فى نُصرته، والدفاع عنه، وحاول أن يردهم بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتى هى أحسن.

أشرف عليهم يومًا وقال لهم: إنه لا يحل سفك دم امرئٍ مسلم إلا فى إحدى ثلاث: كفر بعد إيمان، أو زنًا بعد إحصان، أو قتل نفس بغير نفس. فهل أنا فى واحدة منهن؟ فما وجد القوم له جوابًا.

وقال لهم مرة: أيها الناس؛ إن وجدتم فى الحق أن تضعوا رجلى فى القيد فضعوها، فما وجد القوم له جوابًا. ثم قال: أستغفر الله إن كنتُ ظَلَمتُ، وقد غفرتُ إن كنتُ ظُلِمت!!

واعتصم الخليفة بالصبر، وأبى أن تُسَل السيوف تأييدًا له حتى ضرَّج الثوَّار الأرض بدمه، كراهة أن يلقى الله بدم أحد فى عنقه.

قال معبد الخزاعى لعلىّ بن أبى طالب: أخبرنى أى منزلة وسعتك إذ قُتِلَ عثمان ولم تنصره. قال: إن عثمان كان إمامًا، وأنه نهى عن القتال، وقال: من سَلَّ سيفه فليس منى، فلو قاتلنا دونه عصينا.

قال: « فأى منزلة وسعت عثمان، إذ استسلم حتى قُتل؟ قال: المنزلة التى

وسعت ابن آدم، إذ قال لأخيه: ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٨].

● **المثل الثانى:**

وأما المثل الثانى فهو أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب، إذ يتربص به اثنان من طائفة الخوارج (شبيب الأشجعى، وعبد الرحمن بن مُلْجَم) وقد خرج قُبيل الفجر يُوقظ الناس للصلاة، فترقباه بباب المسجد حتى دخل فضربه شبيب فأخطأه، وضربه ابن مُلْجَم على صلعته، فقال علىٌّ كرَّم الله وجهه: «فزتُ ورب الكعبة» أى بالشهادة. وتجمَّع الناس بسرعة على الرجلين، فأما شبيب فاستطاع أن ينسل من بين الناس. وأما ابن مُلْجَم فلم يكتف بجريمته الشنعاء حتى حمل بسيفه على الناس فأفرجوا له، وتلقاه المُغيرة بن نوفل – أخو الهاشميين – بقطيفة فرمى بها عليه، واحتمله فضرب به الأرض، وكان قويًّا أيدا، فقعد على صدره. ثم أقبل الناس على علىٍّ رضى الله عنه، يسألونه ما يصنعون به. فماذا قال علىٌّ فى شأن قاتله البغيض، وهو الخليفة الآمر المُطاع؟

قال: «إن أعش فالأمر إلىَّ، وإن أصبتُ فالأمر لكم، فإن آثرتم أن تقتصوا فضربة بضربة، وأن تعفوا أقرب للتقوى».

هذا هو منطق الإيمان: ضربة بضربة، وأن تعفوا أقرب للتقوى، ألا ما أروع وما أعظم؟؟

تُرى كم كان يذهب ضحية من قوم هذا القاتل وحزبه لو كان الأمر بيد الماديين الذين لا يخشون الخالق ولا يرحمون المخلوق؟!!

* * *

الإيمان والإنتاج

ونعنى بالإنتاج هنا: الإنتاج الاقتصادى بخاصة، والإنتاج المادى والمعنوى بعامة، ذلك أن بعض الناس يُخيَّل إليه أن الإيمان بالدين وعقائده قد يُؤخر عجلة الإنتاج أو يعوقها فى سيرها وحركتها، بما يميت فى النفوس من حب الحياة والرغبة فى العمل المادى، وربما يُلقيه فى قلوب الناس أن الإنسان مُسيَّر لا مُخيَّر، وأن الحياة الدنيا لا تستحق العمل والاهتمام، لكم يخسر المجتمع، وتتأخر الحياة، إذا شاع فيها هذا اللَّون من الإيمان.

وهذه أوهام أشاعها الجهل عن الدين والإيمان، والحقيقة أن الإيمان أعظم دافع للإنتاج لو تأمل الناس وأنصفوا، فالإنتاج لا ينمى ويزداد إلا بما يبذل الناس من جهد وعمل، وما يصحب هذا العمل من إحكام وإتقان. ولا يتحقق هذا وذاك إلا فى جو من الأمانة والإخلاص للعمل، وذلك لا يكون إلا بباعث قوى، وحافز غلاَّب، فهل هناك باعث أقوى تأثيراً من الإيمان؟

● **الإيمان والعمل:**

إن الإيمان الصادق ليس مجرد إدراك ذهنى أو تصديق قلبى غير متبوع بأثر عملى فى الحياة .. كلا، إنه اعتقاد وعمل وإخلاص.

ومهما اختلف علماء الكلام والجدل فى العقائد حول مفهوم الإيمان وصلة العمل به: أهو جزء من مفهومه أم شرط له أم ثمرة من ثمراته، فإنهم متفقون على أن العمل جزء لا يتجزأ من الإيمان الكامل.

وقد رُوِىَ فى الأثر ما يصوِّر لنا حقيقة الإيمان: «ليس الإيمان بالتمنى ولا بالتحلى، ولكن ما وقر فى القلب وصدَّقه العمل»(١).

---

(١) رواه ابن النجار والديلمى فى «مسند الفردوس» من حديث أنس ورمز له السيوطى فى «الجامع» بعلامة الضعف.

وقد ذكر القرآن الكريم الإيمان مقرونًا بالعمل فى أكثر من سبعين آية من آياته، ولم يكتف بمجرد العمل ولكنه يطلب عمل «الصالحات» وهى كلمة جامعة من جوامع القرآن تشمل كل ما تصلح به الدنيا والدين، وما يصلح به الفرد والمجتمع،وما تصلح به الحياة الروحية والمادية معًا.

● **دافع المؤمن إلى العمل دافع ذاتى:**

والمؤمن بالدين عامة وبعقيدة الإسلام خاصة، لا يُساق إلى العمل الدنيوى سوق القطعان. لا يدفعه إليه قهر حكومى أو ضغط خارجى، أو رقابة من سلطة تنفيذية تُشهر عليه سيف التهديد بالجوع والحرمان أو عذاب الهون، كما يعرف فى الأنظمة الاشتراكية.

وإنما يندفع المؤمن إلى العمل بحافز من نفسه، وباعث من ذاته، بإيحاء ينبعث من داخله لا سوطًا يسوقه من الخارج. ذلك الباعث الذاتى هو الإيمان بالله وبرسالة السماء، وبمهمته فى عمارة الأرض والسيادة على الكون.

إن المؤمن يوقن أن السعادة فى الآخرة والنجاح فى الأولى موقوف على العمل. الجنة فى الآخرة ليست جزاءً لأهل البطالة والكسل والفراغ، بل لأهل الجد والعمل والإتقان: ﴿ **وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ [الزخرف:٧٢]، ﴿ **فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾

[السجدة: ١٧]

● **الفوز فى الآخرة بالعمل لا بالأمانى:**

وقد هدمت عقيدة الإسلام ذلك الطمع الأشعبى، والأمانى الفارغة التى جعلت صنفًا من الناس يحسبون الجنة حكرًا لهم، أو عقارًا سيتوارثونه عن الآباء والأجداد، يستحقونها بمجرد الانتساب إلى دين معين أو الدخول تحت عنوان خاص.

أبطل الإسلام هذه الدعاوى العريضة، ورد الأمر كله إلى صدق الإيمان

وحسن العمل: ﴿ **وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ [البقرة: ١١١-١١٢] وبهذا رسم الطريق إلى الجنة: إسلام الوجه إلى الله وإحسان العمل.

ولم يكن هذا موقف من اليهود والنصارى فحسب، فلقد وقف نفس الموقف من الأشعبيين، من المسلمين أنفسهم، أولئك الحمقى الذين يتبعون أنفسهم هواها ويتمنون على الله الأماني، ويظنون أن النطق بكلمة الإسلام، أو التسمي بأسماء المسلمين يكفي ليفتح لهم أبواب الجنة، فيدخلوها بسلام آمنين، ولكن القرآن بيَّن لهم بوضوح أن قانون الله في الجزاء عام لعباده قاطبة، لا محاباة عنده، ولا فرق بين طائفة وطائفة.

روى المفسرون للقرآن أن مجلسًا ضم جماعة من اليهود والنصارى والمسلمين فزعمت كل طائفة منهم أنهم أولى الناس بدخول الجنة، اليهود قالوا: نحن أتباع موسى الذي اصطفاه الله برسالاته وبكلامه.

والنصارى قالوا: نحن أتباع عيسى روح الله وكلمته.

والمسلمون قالوا: نحن أتباع محمد خاتم النبيين وخير أمة أخرجت للناس، ولم يدع القرآن هؤلاء وهؤلاء لدعاواهم وتنازعهم، فنزلت آياته حاكمة فاصلة، قاضية عادلة، تُخاطب المسلمين في صراحة وجلاء: ﴿ **لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً * وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيراً** ﴾ [النساء: ١٢٣ - ١٢٤].

● النجاح في الدنيا بالعمل:

ولا يذهب الظن أو الوهم بأحد، فيحسب أن ارتباط السعادة والفوز بالعمل مقصور على الآخرة وحدها، فإن قوانين الله في الجزاء واحدة، ورب الدنيا والآخرة

واحد، فالله تعالى يقول: ﴿إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ [الكهف: ٣٠]، ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤]، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

وسُنَّةُ الله - التى أخبرنا القرآن أنها لا تتبدل ولا تتحوَّل - لا تسمح لفارغ أو قاعد أو كسول أن يظفر بما يريد، أو يحقق ما يأمل، بل إن سُنَن الله فى الدنيا لا تفرِّق فى الجزاء على العمل بين مؤمن وكافر ... فمَن عمل أجر، ومَن قعد حُرِم، مهما كان دينه أو اعتقاده.

وبهذا يندفع المؤمن إلى العمل دائمًا، حتى لا يصادم سُنَن الله فى الكون فتصدمه، فيكون من الهالكين.

● **المؤمن يخشى الله فى عمله فيتقنه:**

والمؤمن لا يكتفى بالاندفاع الذاتى إلى العمل، بل يهمه أن يجوِّده، ويتقنه ويبذل جهده لإحسانه وإحكامه، لشعوره العميق، واعتقاده الجازم أن الله يرقبه فى عمله، ويراه فى مصنعه أو فى مزرعته أو فى أى حال من أحواله، وأنه تعالى «كتب الإحسان على كل شىء» (١) وقد فسَّر نبى الإسلام هذا الإحسان فى جانب العبادة، فقال: «الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» (٢).

وهذا هو شعور المؤمن فى كل عمل من الأعمال - لا فى العبادة وحدها - أن يؤدى العمل كأنه يرى الله، فإن لم يبلغ هذه المرتبة فأقل ما عليه أن يشعر أن الله يراه، وشعار المؤمن دائمًا فى أدائه لعمله: إنى أرضى ربى.

وربه لا يرضيه منه إلا أن يقوم بعمله فى صورة كاملة متقنة، وهذا ما علَّمه نبى الإسلام للمؤمنين: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يُتقنه» (٣). عملاً - أى عمل من أعمال الدنيا أو أعمال الآخرة.

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم.
(٢) جزء من حديث جبريل المشهور.
(٣) رواه البيهقى فى «شُعب الإيمان».

وهناك خُلُقان أصيلان يتوقف عليهما جودة العمل، وحسن الإنتاج، وهما: الأمانة، والإخلاص، وهما فى المؤمن على أكمل صورة وأروع مثال. فالصانع المؤمن مثلاً ليس همه مجرد الكسب المادى من صنعته، أو إرضاء صاحب المصنع إن كان يعمل عنده بأجر. ولكنه أمين على صنعته يخلص فيها جهده، ويرقب فيها ربه، ويرعى حق إخوته المؤمنين وهم له أولياء، وعليه رقباء، ويرجو بعد ذلك جزاء الله فى الآخرة، ﴿ **وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ [التوبة: ١٠٥].

إننا كثيراً ما نقرأ فى الصحف، وما نسمع من الناس، كما نشاهد نحن بأعيننا، ما تُعانيه المؤسسات العامة من أجهزة تتوقف - على جدتها - وأدوات تُخرَّب على متانتها، ومصالح تُعطَّل، مع حاجة الجمهور إليها، وأعمال يكفيها يوم تستغرق أياماً. ونتيجة ذلك أن مشروعات نافعة تفشل، وجهوداً مخلصة تُبعثر، وأموالاً طائلة تضيع، وأن الإنتاج العام بعد ذلك كله يتدهور أيما تدهور. وما ذلك إلا لفقدان الأمانة والإخلاص وخراب الضمائر عند أولئك الذين لا يرجون لله وقاراً، ولا يحسبون للآخرة حساباً.

● أثر السكينة النفسية فى الإنتاج:

والمؤمن - كما عرفنا - يتمتع فى حياته بسكينة النفس، وطمأنينة القلب، وانشراح الصدر، وبسمة الأمل، ونعمة الرضا والأمن، وروح الحب والصفاء، ولا ريب أن لهذه الحالة النفسية أثرها فى الإنتاج، فإن الإنسان الشارد أو المضطرب أو القلق أو اليائس أو الحاقد على الناس والحياة، قلَّما يُحسن عملاً يُوكل إليه، أو ينتج إنتاجاً يُقنع ويُرضى.

هذا أمر يُعرَف بأدنى ملاحظة، لا يحتاج إلى إحصاء العالِم، ولا برهنة الفيلسوف.

● أثر الاستقامة فى الإنتاج:

والمؤمن الصادق الإيمان يقف عند حدود الله، وينتهى عما نهاه، وينأى

بنفسه عن ارتكاب الموبقات، والانغماس فى أوحال المحرَّمات، وإرسال العنان للشهوات، إن إيمانه يأبى عليه أن يُفرغ طاقته فى سهر عابث، ولهو حرام، يأبى عليه أن يجرى وراء قدح يفور بالخمر، أو مائدة تدور بالقمار، أو جسد يمور بالفتنة.

وبذلك يظل محتفظًا بحيويته وطاقته الجسدية والعصبية والعقلية والنفسية، فلا يصرفها إلا فى العمل الصالح أو ما يُعين عليه من لهو برىء.

وهذا كسب كبير للفرد نفسه، ولأسرته وأولاده، وللمجتمع الذى يعيش فيه وللحياة الإنسانية عامة.

إننا لو أحصينا ما تستهلكه الشهوات المحرَّمة، والموبقات المحظورة، والملاهى الآثمة – التى يجتنبها المؤمنون الصادقون – من الطاقات الإنسانية والمادية – لبلغت حدًّا هائلاً يفوق ما تبتلعه الحروب المدمرة، والأوبئة الفتَّاكة، والكوارث المخربة، ولكن الإلف والعادة هما اللَّذان هوَّنا على الناس هذه الخسائر الفادحة، التى تُصاب بها الإنسانية كل يوم، بل كل ساعة. وقد نشرت الصحف أن فى أمريكا ٧٢ مليونًا يتعاطون الخمور، منهم ٢٠ مليونًا يُكلِّفون الدولة بليونى دولار كل سنة، بسبب تخلفهم عن العمل. فإذا كانت هذه مغارم الخمر وحدها فكم تبلغ مغارم سائر الموبقات وسوء أثرها على الإنتاج؟!

■ **إحساس المؤمن بقيمة الوقت:**

والمؤمن أعمق الناس إحساسًا بقيمة الوقت: إن الله سائله يوم الجزاء عن عمره فيم أفناه؟ وعن شبابه فيم أبلاه؟ فهو لهذا يضن بوقته أن يضيع فى عبث، أو يُبعثر فى مهب الرياح الهوج. إنه رأس ماله الوحيد، فكيف يُضَيِّعه ويبقى صفر اليدين؟ إن الوقت نعمة يجب أن تُشكر بالانتفاع بها، ولا تُكفر بالتفريط فيها. وقد قال عمر بن عبد العزيز: «إن اللَّيل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما».

المؤمن يشعر كأن كل يوم تبزغ شمسه أو ينشق فجره، يُناديه بصوت جهير: أيُّهَا الإنسان؛ أنا خلق جديد، وعلى عملك شهيد، فتزوَّد منى واغتنمنى بعمل الصالحات فإنى إذا مضيتُ لا أعودُ أبدا.

وهو الذى يخشى أن تنفلت الأيام من يديه خاوية من العمل والإنتاج، فلا يُؤَخر عمل اليوم إلى غد، لأن للغد عمله الذى يزحمه، فلا يتسع لعمل غيره من الأيام.

وهو كذلك حريص على أن يكون يومه خيراً من أمسه، وغده خيرا من يومه، وأن يُطيل حياته – بعد موته – بطول أعماله، ويمد عمره بامتداد الجميل من آثاره، إنه يحرص أن يخلف وراءه علماً نافعاً، أو عملاً طيباً، أو مشروعا مثمراً، أو صدقة جارية، أو ذُرِّية صالحة، وعلى قدر ما يمتد ويبقى الأثر الذى يخلفه وعلى قدر ما ينتفع الناس به تكون مثوبته عند الله. هذه الروح هى التى جعلت رجلاً كأبى الدرداء – صاحب رسول الله – يغرس شجرة الجوز وهو فى الشوط الأخير من رحلة الحياة فيقول له بعض الناس: أتغرس هذه الجَوزة وأنت شيخ كبير، وهى لا تُثمر إلا بعد كذا وكذا من السنين؟ فيقول له أبو الدرداء: وماذا علىَّ أن يكون لى ثوابها ولغيرى ثمرتها؟

وهى التى جعلت آخر يغرس شجرة الزيتون ويقول: غرس لنا مَن قبلنا فأكلنا، ونغرس ليأكل مَن بَعدنا.

● **العبادات والإنتاج:**

ولقد يقول بعض الناس: إن كل عقيدة دينية تفرض على المؤمنين بها ألوانًا من العبادات وضروبًا من القُربات والمراسم، تأخذ من أوقات الناس شيئًا يضيق ويتسع باختلاف الأديان وصنوف عباداتها. وخذ مثلاً الصلاة الإسلامية التى تُؤدَى كل يوم خمس مرات: أليس فى ذلك تعطيل للعمل، وتعويق للعامل. فى عصر الآلة والسرعة والمنافسة الجبارة؟

والحق أن العبادات فى الأديان عامة لا تأخذ من وقت الناس إلا القليل، ما لم يُشرِّع الناس لأنفسهم من الدين ما لم يأذن به الله، فيشقُّوا على أنفسهم ويُرهقوها عُسراً.

على أن القليل الذى يُنفق فى العبادة، ليس وقتًا ضائعًا على الحياة والإنتاج.

كلا. إنه شحن للطاقة وشحذ للهمة، وتوليد للقوة، وصقل لمعدن النفس لتعود إلى معركة الحياة أقوى وأمضى.

وإنه لمن الظلم للواقع أن يُقاس الشيء بأثره المادى المباشر المنظور، ويُغفَل عن أثره الفعَّال الخفى الهادئ فى النفس وفى المادة أيضًا.

ما أصدق ما قال الدكتور «ألكسيس كاريل» مؤلف كتاب «الإنسان ذلك المجهول» وأحد الحائزين على جائزة «نوبل»:

«لعل الصلاة هى أعظم طاقة مُوَلِّدة للنشاط عُرفت إلى يومنا هذا، وقد وأيتُ – بوصفى طبيبًا – كثيرًا من المرضى فشلت العقاقير فى علاجهم، فلما رفع الطب يديه عجزًا وتسليمًا تدخلت الصلاة فأبرأتهم من عِللهم.

«إن الصلاة كمعدن« الراديوم» مصدر للإشعاع. ومولِّد ذاتى للنشاط، وبالصلاة يسعى الناس إلى استزادة نشاطهم المحدود، حين يخاطِبون القوة التى لا يفنى نشاطها.

«إننا نربط أنفسنا – حين نُصلِّى – بالقوة العُظمى التى تهيمن على الكون ونسألها ضارعين أن تمنحنا قبسًا منها، نستعين به على معاناة الحياة. بل إن الضراعة وحدها كفيلة بأن تزيد قوتنا ونشاطنا. ولن تجد أحدًا ضرع إلى الله مرة إلا عادت هذه الضراعة بأحسن النتائج».

وإذا كان هذا أثر الصلاة بعامة، فإن الصلاة الإسلامية بخاصة أبعد أغوارًا وأعمق آثارًا، إنها ليست تَعبُّدًا محضًا، ولا ضراعة خالية من معانى الحياة، إنها – مع الضراعة والتعبُّد – نظافة، وثقافة، ورياضة، وتربية خُلُقية، وهى – بما سَنَّهُ الإسلام من نظام الجماعة – مدرسة لتعليم المبادئ الاجتماعية المُثلى، ومعهد للتربية العلمية على المحبة والإخاء، والمساواة بين الناس.

وليت شعرى هل يخسر الإنتاج أو يربح من رجل يستيقظ قبل أن تبرز الشمس من خِدرها، فيقوم فيتوضأ ويتطهر. ويُصلِّى لربه، ويستقبل نهاره مبكرًا طيب النفس، نشيط البدن، منشرح الصدر، قوى اليقين؟

وبحق ما قاله أحد الباحثين فى أثر صلاة الجماعة الإسلامية فى حياة المسلم:

« وإنه – وايم الحق – لنعمة كبرى أن يكون فى مكنة الإنسان التمتع خمس مرات يوميًّا بجو من السلام التام وسط عالم يسوده الصراع والنضال، وبجو من المساواة على حين يكون التباين هو النظام السائد، وبجو من المحبة فى معمعة الأحقاد الوضعية، والتنابذات والخصومات المفعمة بها الحياة اليومية، إنها حقًّا لأجزل النِعَم لأنها العبرة الجلى من الحياة، فليس للإنسان بد من أن يعمل وسط التباين والنضال والصراع، ووسط مشاهد البغضاء والتشاحن، ومع ذلك ينتزع نفسه من كل هذا خمس مرات ليكتنه حقيقة المساواة والإخاء والمحبة من حيث إنها هى المصادر الحقة للسعادة الإنسانية.

ومن أجل ذلك كان الوقت الذى تستغرقه الصلاة غير مُضيَّع عبثًا من ناحية الخيرية الفاعلية، والنفع العملى للبشرية، إذ إنه على العكس من ذلك قد استُغِلَ أحسن استغلال، بتعلم تلك الدروس الجليلة التى تجعل الحياة حقًّا جديرة بالعيش فيها.

وتلك الدروس فى الإخاء والمساواة والمحبة تصبح بممارستها عمليًّا فى الحياة اليومية دعامات لتوحيد الجنس البشرى، وتخليد الحضارة الأبدية لبنى الإنسان».

● **المؤمن يعمر أرض الله بالعمل:**

ولقد يغرق الناس فى الخيال، فيتصورون المؤمن درويشًا فى « تكيته » أو راهبًا فى « ديره » متبتلاً للعبادة منقطعًا عن الحياة، وهذه كارثة على العمل والإنتاج.

ولكن هذه الصورة – إن عرفتها بعض الأديان فى بيئات معينة – لا تعرفها عقيدة الإسلام، فالإسلام لا يعرف المؤمن إلا كادحًا عاملاً مؤديًا دوره فى الحياة، آخذًا منها مُعطيًا لها. مستجيبًا لما أراده الله من بنى آدم حين جعلهم خلفاء الأرض ﴿ **هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا** ﴾ [هود: ٦١].

عقيدة الإسلام لا تعرف يومًا من أيام الأسبوع يخلص للعبادة، وينقطع الناس فيه عن أعمال الحياة – كما تعرف اليهودية مثلاً – ولكن الأيام جميعها فى

الإسلام أيام عمل، والعمل الدنيوى فى الإسلام يمكن أن يكون عبادة بصدق النية هذا يوم الجمعة عيد الإسلام الأسبوعى، يقول الله تعالى فيه: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [الجمعة: ٩-١٠].

فهذه حياة المسلم فى يوم الجمعة، عمل وبيع وتجارة قبل الصلاة، ثم سعى إلى ذكر الله والصلاة، ثم انتشار فى الأرض وابتغاء من فضل الله بعد انقضاء الصلاة.

وقد حدَّثوا أن عمر بن الخطاب رأى قومًا قابعين فى ركن من المسجد بعد صلاة الجمعة فسألهم: من أنتم؟ فقالوا: نحن المتوكلون على الله. فعلاهم عمر بدرته ونهرهم وقال: لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول: اللَّهم ارزقنى وقد علم أن السماء لا تُمطر ذهبًا ولا فضة. وإن الله يقول: ﴿ **فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ** ﴾.

● **الإيمان بالآخرة لا يُعَطِّل الدنيا:**

ويزعم بعض الناس أو يظنون أن الإيمان بالآخرة، والإقبال عليها يُعَطِّل العمل للدنيا، والكفاح من أجل ترقيتها، فإن الدنيا والآخرة ككفتى الميزان لا ترجح إحداهما إلا بمقدار ما تحمل الأخرى، وكالمشرق والمغرب إذا اقتربتَ من أحدهما ابتعدتَ من الآخر، وكالضُرَّتين إذا أرضيتَ إحداهما أسخطتَ الأخرى!! وهكذا فكل إقبال على الآخرة يقابله إعراض عن الدنيا.

وهذا الكلام صحيح إذا نظرنا إلى القلوب والأهداف والنيَّات .. فمن جعل الدنيا غايته ونيَّته وهَمُّه ابتعد عن الآخرة بقدر ما تعلَّق قلبه بالدنيا. والعكس بالعكس. أى أن المطلوب من المؤمن فى الدنيا، أن يعمل ويجهد ويكافح، ويبنى ويعمر ويشيد، على أن تكون الآخرة نيَّته، وغايته، وأمله.

المؤمن يتخذ الدنيا مزرعة للآخرة ، والمزرعة تحتاج إلى عمل وسعى ، ولكن الثمرة إنما تُقطف كاملة فى الآخرة ، وإن أدرك بعضها فى الدنيا : ﴿ **قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ** ﴾ [الأعراف : ٣٢] ... ذلكم هو المؤمن : يُسَخِّر الدنيا لنفسه ، ولا يُسَخِّر نفسه للدنيا ، المؤمن لا يتخذ الدنيا ربًّا فتتخذه الدنيا عبداً .

ولكنه بعد ذلك عضو عامل فى جسم الأمة ، ودم يجرى فى عروقها ، يمدها بالقوة والحركة والنماء ، فهو إذا زرع أحسن ، وإذا صنع أتقن ، وإذا تاجر برع ، وهو فى كل جانب من جوانب الحياة حاذق مجيد .

قد كان أصحاب النبى ﷺ زُرَّاعاً وتُجَّاراً وصُنَّاعاً متقنين ، ولم يقعد بهم إيمانهم بالآخرة عن العمل للدنيا ، كيف وقد قال رسولهم (١) : « **إن قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها ، فليغرسها** » **ولماذا يغرسها والساعة ستقوم ، ولا أمل فى انتفاع أحد من الخلق بها ؟ إنه تكريم العمل لذات العمل ، ولو لم يكن من ورائه نفع وانتفاع .**

* * *

● **التوكل ليس معناه التواكل :**

« إن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة » .

بهذا الجواب العُمرى تندفع تلك الشُبهة التى تحوك فى بعض الصدور ، ذلك أن من صفات المؤمن التوَّكل على الله ، والتسليم له فى شأنه كله ، والقرآن الكريم يقول : ﴿ **وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً** ﴾ [النساء : ٨١] ، ﴿ **وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ [المائدة : ٢٣] ، ﴿ **وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ** ﴾ [الطلاق : ٣] ..

---

(١) رواه أحمد والبخارى فى « الأدب المفرد » عن أنس ، وكذا البزار والطيالسى ، ورجاله ثقات وأثبات ، كما قال الهيثمى .

ولكن ما معنى التوكل؟

إن التوكُّل ليس معناه إطراح الإنسان للأسباب التى وضعها الله، والاتكال عليه أن يخرق له العوائد، ويجعل السماء من فوق رأسه تُمطر الذهب والفضة، والأرض من تحت قدميه تُخرج له الخبز والإدام والسمن والعسل، بلا جهد ولا سعى ولا تفكير ولا عمل.

إن معنى التوكل أن يرتب الإنسان المقدمات. ويدع النتائج لله.

أن يبذر الحب ويرجو الثمار من الرب.

أن يقوم بالجانب البَشرى الذى يخصه، ويترك الباقى لربه، يُهيئ له الأسباب ويُزيلُ من طريقه الموانع، وما أكثر الأسباب التى يجهلها الإنسان، وما أكثر الموانع التى لا يعلمها فضلاً عن أن يستطيع تذليلها.

ولقد جاء أعرابى إلى رسول الله ﷺ فترك ناقته بباب المسجد سائبة بلا عقال، وزعم بذلك أنه يتوكَّل على الله فى حراستها. فقال له النبى الكريم كلمته التى سرت فى المسلمين مسرى الأمثال السائرة: «اعقلها وتوكَّل».

والحديث الذى يتعلق بأذياله المتبطلون: «لو توكَّلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصًا وتروح بطانًا» هو فى الواقع حجة عليهم لا لهم، فإنه لم يضمن لها الرواح ملأى البطون، إلا بعد غدوها وسعيها، لا مع بقائها فى أوكارها.

* * *

الإيمان والإصلاح

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١].

● **ضرورة التغير النفسى لكل حركة ونهضة ناجحة:**

إن إصلاح الجماعات والشعوب لا يجيء جزافًا ولا يتحقق عفوًا.

إن الأمم لا تنهض من كَبوة، ولا تقوى من ضعف، ولا ترتقى من هبوط، إلا بعد تربية أصيلة حقة، وإن شئت فقل: بعد تغير نفسى عميق الجذور، يُحوِّل الجمود فيها إلى حركة، والغفوة إلى صحوة، والركود إلى يقظة، والفتور إلى عزيمة، والعقم إلى إنتاج، والموت إلى حياة. تغير فى عالم النفس أشبه ما يكون «بثورة أو انقلاب» فى عالم المادة، تغير يُحوِّل الوجهة والأخلاق، والميول والعادات، تغير نفسى لا بد أن يُصاحب كل حركة أو نهضة أو ثورة سياسية أو اجتماعية – ومن غيره تكون النهضة أو الثورة حبرًا على ورق، أو كلامًا أجوف يتبدد فى الهواء.

سُنَّة قائمة من سُنَن الله تعالى في الكون، قررها القرآن الكريم فى عبارة وجيزة بليغة: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾.

ولكن هذا التغيير أمر ليس بالهين اليسير، إنه عبء ثقيل تنوء به الكواهل، فإن الإنسان مخلوق مُركَّب معقد، ومن أصعب الصعب تغيير نفسه أو قلبه، أو فكره.

إن التحكم فى مياه نهر كبير، أو تحويل مجراه، أو حفر الأرض، أو نسف الصخور، أو أى تغيير فى معالم الكون المادى أسهل بكثير من تغيير النفوس، وتقليب القلوب والأفكار. إن بناء المصانع والمدارس والسدود والمنشآت سهل ومقدور عليه، ولكن الأمر الشاق حقًّا هو بناء الإنسان .. والإنسان القادر على نفسه، المتحكم فى شهواته، الذى يعطى الحياة كما يأخذ منها، ويؤدى واجبه كما

يطلب حقه، الإنسان الذى يعرف الحق ويؤمن به ويدافع عنه، ويعرف الخير ويحبه للناس كما يحبه لنفسه، ويتحمل تبعته فى إصلاح الفساد. والدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، وتضحية النفس والمال فى سبيل الحق.

إن صنع هذا الإنسان أمر عسير غير يسير.

ولكن الإيمان وحده هو صانع العجائب، الإيمان هو الذى يُهيئ النفوس لتقبل المبادئ الخيرة مهما يكمن وراءها من تكاليف وواجبات، وتضحيات ومشقات، وهو العنصر الوحيد الذى يُغيِّر النفوس تغييراً تامًّا وينشئها خَلْقًا آخر. ويصبها فى قالب جديد، فيغير أهدافها وطرائقها، ووجهتها وسلوكها وأذواقها ومقاييسها، ولو عرفت شخصًا واحدًا فى عهدين – عهد الكفر وعهد الإيمان – لرأيتُ الثانى شخصًا غير الأول تمامًا، لا يصل بينهما إلا الاسم. أو النَسَب أو الشكل.

والإيمان كذلك لا يعترف بالمراحل والأعمار التى وضعها علماء النفس والتربية، واشترطوها لنجاح المجهود التربوى.

إنهم يُقرِّرون أن هناك سِنًّا معينة هى سن القبول لتكوين العادات، واكتساب الصفات، وتهذيب الطباع والأخلاق، تلك هى سن الطفولة، فإذا كبر المرء أو المرأة على صفات خاصة فهيهات أن يحدث فيها تغيير يُذكر، فمن شَبَّ على شىء شاب عليه، ومن شاب على شىء مات عليه.

وينفع الأدب الأحداث فى صغر ... وليس ينفع عند الشيبة الأدب

إن الغصون إذا قوَّمتها اعتدلت ... ولن تلين إذا قوَّمتها الخُشب

ولكن هناك شيئًا واحدًا تخطى قواعد التربويين والنفسيين. ذلك هو الإيمان هو الدين، فالإيمان إذا سكن فى قلب، وتغلغل فى أعماقه، حوَّل اتجاهه، وغيَّر نظرته للكون والحياة، وأحكامه على الأشياء والأعمال، وعدَّل سلوكه مع الله والناس، ولم يقف فى سبيل ذلك فتوة الشباب، ولا كهولة الكهول، ولا هرم الشيوخ.

هل أتاك حديث سحَرة فرعون الذى قص القرآن علينا قصتهم؟.. اقرأ هذه الآيات من سورة الشعراء: ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ * قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ * فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ * لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ * فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ * فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ * فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ * قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ * إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٣٢ – ٥١].

ومن سورة طه يحكى الله تهديد فرعون لهم: ﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ * قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه ٧١ – ٧٣].

كيف تغيَّرت شخصياتهم؟ كيف انقلبت موازينهم؟

كانت هممهم مشدودة إلى المال ﴿ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا ﴾؟ وكانت آمالهم منوطة بفرعون ﴿ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾.

هذا منطقهم قبل أن يؤمنوا .. فلما ذاقوا حلاوة الإيمان كان جوابهم على التهديد والوعيد فى بساطة ويقين: ﴿ **لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ** ﴾.

بعد أن كان همهم الدنيا صار همهم الآخرة ﴿ **لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا** ﴾ وبعد أن كانوا يحلفون بعزة فرعون صاروا يقولون: ﴿ **وَالَّذِي فَطَرَنَا** ﴾.

تغيَّر الاتجاه .. تغيَّر المنطق .. تغيَّر السلوك .. تغيَّرت الألفاظ .. أصبح القوم غير القوم .. وما ذلك إلا من صنع الإيمان.

وفى القصة القصيرة التى رواها الإمام مسلم فى صحيحه برهان مبين على مبلغ أثر الإيمان، ذلك أن رجلاً كان ضيفًا على النبى ﷺ فأمر له بشاة فحُلِبَت، فشرب حلابها. ثم أمر له بثانية فشرب حلابها. ثم بثالثة فرابعة .. حتى شرب حلاب سبع شياه، وبات الرجل، وتفتَّح قلبه للإسلام، فأصبح مسلمًا، معلنًا إيمانه بالله ورسوله، وأمر الرسول له فى الصباح بشاة فشرب حلابها ثم أخرى لم يستتمه، وهنا قال رسول الله ﷺ كلمته المأثورة: «إن المؤمن ليشرب فى معى واحد، والكافر ليشرب فى سبعة أمعاء».

فيما بين يوم وليلة استحال الرجل من شره ممعن فى التشبع، حريص على ملء بطنه، إلى رجل قاصد عفيف قنوع، ماذا تغيَّر فيه؟ .. تغير فيه قلبه، كان كافرًا فأصبح مؤمنًا، وهل هناك أسرع أثرًا من الإيمان؟

إن الإيمان الجديد أشعر الرجل بغاية ورسالة، وفروض وواجبات، ونفذ ذلك إلى أعماقه نفوذًا جعله ينسى هم أمعائه، ويعرض عن الإمعان فى الطعام والشراب، وليست هذه حادثة فردية، أو واقعه شاذة، فهل يمكن أن ننكر أو ننسى ما فعله الإيمان بأمة العرب جميعًا؟

لقد حار المؤرخون من الغربيين والمستغربين، فى فهم السر العجيب الذى حوّل هذه الأمة من رُعاة غنم إلى رُعاة أمم، ومن قبائل بداوة إلى أمة حضارة، وهيأ لها سبيل النصر على كِسرى وقيصر، وفتح لها باب السيادة على معظم الدنيا القديمة فى عشرات من السنين لا عشرات من القرون.

ولكن العارفين لا يدهشون ولا يحاربون، فالسر معروف، والسبب معلوم. إن مرده هو «إكسير» الإيمان الذى صبَّه محمد عليه السلام فى نفوس أصحابه، فنقلهم من حال إلى حال، من وثنية إلى توحيد، ومن جاهلية إلى إسلام.

وحسبنا مثلاً على هذا التحول الخطير رجل وامرأة عُرِف أمرهما فى الجاهلية وعُرِف أمرهما فى الإسلام.

الرجل هو «عمر بن الخطاب» الذى رووا أنه بلغ فى جاهليته من انحراف العقل، أن عَبَدَ إلَهًا من الحلوى ثم جاع يومًا فأكله، ومن انحراف العاطفة، أن وَأَدَ بنتًا له صغيرة كانت تمسح الغبار عن لحيته وهو يحفر لها مكانها فى التراب.

عمر هذا، ينتقل من الجاهلية إلى الإسلام، فيتحرَّر عقله حتى يقطع شجرة الرضوان التى بايع النبى أصحابه يوم الحُديبية تحتها خشية أن يطول الزمن بالناس فيُقدِّسوها، ويقف أمام الحجر الأسود بالكعبة فيقول: أيها الحجر؛ إنى أقَبِّلُكَ وأنا أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أنى رأيتُ رسول الله يُقَبِّلُكَ ما قَبَّلْتُك.

وعمر هذا ... يبلغ من سمو عاطفته، ورقة قلبه، وخشيته لله، ما ملأ صفحات التاريخ بآيات الرحمة الشاملة للمسلم وغير المسلم، بل للإنسان والحيوان، حتى قال: «لو عثرت بغلة بشط الفرات لرأيتنى مسؤولاً عنها أمام الله ... لِمَ لَمْ أسو لها الطريق»؟

هذا هو الرجل..

أما المرأة فهى الخنساء .. المرأة التى فقدت فى جاهليتها أخاها لأبيها «صخرًا» فملأت الآفاق عليه بكاءً وعويلاً، وشعرًا حزينًا، ترك الزمن لنا منه ديوانًا كان الأول من نوعه فى شعر المراثى والدموع:

يُذكِرُنى طلوع الشمس صخرًا وأذكره بكل غروب شمس
ولولا كثرة الباكين حولى على إخْوانهم لقتلتُ نفسى

ولكننا بعد إسلامها نراها امرأة أخرى .. نراها أما تُقَدِّم فلذات أكبادها إلى الميدان، أى إلى الموت، راضية مطمئنة، بل محرضة دافعة.

روى المؤرخون أنها شهدت حرب القادسية بين المسلمين والفُرس تحت راية القائد «سعد بن أبى وقاص»، وكان معها بنوها الأربعة، فجلست إليهم فى ليلة من الليالى الحاسمة، تعظهم وتحثهم على القتال والثبات، وكان من قولها لهم: «أى بَنِيَّ، إنكم أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، والذى لا إله إلا هو إنكم لبنو رجل واحد كما أنكم بنو امرأة واحدة، ما خنتُ أباكم، ولا فضحتُ خالكم، ولا هجَّنتُ حسبكم، ولا غيَّرتُ نسبكم، وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل فى حرب الكافرين، واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية، والله تعالى يقول: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، فإذا أصبحتم غداً إن شاء الله سالمين فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين، وبالله على أعدائكم مستنصرين، فإذا رأيتم الحرب قد شمَّرت عن ساقها فتيمموا وطيسها، وجالدوا رئيسها، تظفروا بالغُنم فى دار الخلد..».

فلما أصبحوا باشروا القتال بقلوب فتيَّة، وأنوف حميَّة، إذا فتر أحدهم ذكّره إخوته وصية الأم العجوز، فزأر كاللَّيث، وانطلق كالسهم. وانقض كالصاعقة، ونزل كقضاء الله على أعداء الله، وظلوا كذلك حتى استشهدوا واحداً بعد واحد.

وبلغ الأم نعى الأربعة الأبطال فى يوم واحد، لم تلطم خدًّا، ولم تشق جيبًا، ولكنها استقبلت النبأ بإيمان الصابرين، وصبر المؤمنين، وقالت: «الحمد لله الذى شرَّفنى بقتلهم، وأرجو من ربى أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته».

ما الذى غيَّر عمر القديم وصنع عمر الجديد؟

وما الذى غيَّر خنساء النواح والبكاء إلى خنساء التضحية والفداء؟

إنه صانع المعجزات ... إنه الإيمان!!

● **المفتاح الفذ لأقفال الحياة:**

إن الرجوع إلى الإيمان بالله والآخرة هو الأمل الوحيد فى خلاص الإنسان مما يعانيه اليوم من مشكلات تُهدِّد الإنسان بالدمار، دمار خصائصه الذاتية، ومقوِّماته المعنوية، التى كان بها إنسانًا، واستحق بها السيادة فى الكون والخلافة فى الأرض.

إن الإيمان الحق – كما جاء به الإسلام – هو الحل الفذ لعُقد الحياة المعاصرة التى استعصت على العلم وعلى الفلسفة، وحار فيها المفكرون والمُشرِّعون وطلاَّب الإصلاح.

ويطيب لى أن أنقل هنا كلمة مضيئة للداعية الإسلامى الكبير أبى الحسن الندوى، بيَّن فيها كيف طلعت شمس الرسالة المحمدية على العالَم فأفاضت عليه نوراً جديداً، وحياة جديدة.

وكيف فتح النبى محمد ﷺ أقفال الحياة الكثيرة المتعددة بمفتاح الإيمان العجيب، قال الأستاذ فى حديث شاعرى بينه وبين نفسه عند غار حِراء فى مكة المكرَّمة:

«لقد كانت الحياة كلها أقفالاً مُعَقدة، وأبوابًا مُقفلة، كان العقل مقفلاً أعيا فتحه الحكماء والفلاسفة، كان الضمير مقفلاً أعيا فتحه الوعاظ والمرشدين، كانت القلوب مقفلة أعيا فتحها الحوادث والآيات، كانت المواهب مقفلة أعيا فتحها التعليم والتربية والمجتمع والبيئة، كانت المدرسة مقفلة أعيا فتحها العلماء والمعلمين، كانت المحكمة مقفلة أعيا فتحها المتظلمين والمتحاكمين، كانت الأسرة مقفلة أعيا فتحها المصلحين والمفكرين، كان قصر الإمارة مقفلاً أعيا فتحه الشعب المظلوم والفلاح المجهود والعامل المنهوك، وكانت كنوز الأغنياء والأمراء مقفلة أعيا فتحها جوع الفقراء وعرى النساء وعويل الرُضعاء، لقد حاول المصلحون الكبار والمتشرعون العظام فتح قفل من هذه الأقفال ففشلوا وأخفقوا، فإن القفل لا يُفتح بغير مفتاحه وقد ضيَّعوا المفتاح من قرون كثيرة وجرَّبوا مفاتيح من صناعتهم ومعادنهم فإذا هى لا توافق الأقفال وإذا هى لا تُغنى عنهم شيئًا، وحاول بعضهم كسر هذه الأقفال فجرحوا أيديهم وكسروا آلتهم.

ففى هذا المكان المتواضع، المنقطع عن العالم المتمدن، على جبل ليس بمخصب ولا بشامخ. تم ما لم يتم فى عواصم العالم الكبيرة ومدارسه الفخمة ومكتباته الضخمة. وهنا مَنَّ اللهُ على العالم برسالة محمد ﷺ، وفى رسالته عاد

هذا المفتاح المفقود إلى الإنسانية، ذلك المفتاح هو «الإيمان بالله والرسول واليوم الآخر» ففتح به هذه الأقفال المُعقدة قفلاً قفلاً، وفتح به هذه الأبواب المُقفلة باباً باباً، وُضِعَ هذا المفتاح النبوى على العقل الملتوى فتفتح ونشط واستطاع أن ينتفع بآيات الله فى الآفاق والأنفس، ويتوصل مع العالم إلى فاطره، ومن الكثرة إلى الوحدة، ويعرف شناعة الشرك والوثنية والخرافات والأوهام. وكان قبل ذلك محامياً مأجوراً يُدافع عن كل قضية حقًّا وباطلاً. وضع هذا المفتاح على الضمير الإنسانى النائم فانتبه، وعلى الشعور الميت فانتعش، وعاش، وتحوَّلت النفس الأمَّارة بالسوء مطمئنة لا تسيغ الباطل ولا تتحمل الإثم حتى يعترف الجانى أمام الرسول بجريمته ويُلح على العقاب الأليم الشديد، وترجع المرأة المذنبة إلى البادية حيث لا رقابة عليها ثم تحضر المدينة وتُعرِّض نفسها للعقوبة التى هى أشد من القتل. ويحمل الجندى الفقير تاج كِسرى ويُخفيه فى لباسه ليستر صلاحه وأمانته عن أعين الناس ويدفعه إلى الأمير لأنه مال الله الذى لا يجوز الخيانة فيه.

كانت القلوب مقفلة لا تعتبر ولا تزدجر ولا ترق ولا تلين، فأصبحت خاشعة واعية تعتبر بالحواث وتنتفع بالآيات، وترق للمظلوم وتحنو على الضعيف.

وُضِعَ هذا المفتاح على القُوى المخنوقة والمواهب الضائعة فاشتعلت كاللَّهيب وتدفقت كالسيل، واتجهت الاتجاه الصحيح، فكان راعى الإبل راعى الأمم وخليفة يحكم العالم وأصبح فارس قبيلة وبلد، قاهر الدول وفاتح الشعوب العريقة فى القوة والمجد. وضع المفتاح على المدرسة المقفلة وقد هجرها المُعلِّمون وزهد فيها المُتعلِّمون وسقطت قيمة العلم وهان المُعَلِّم، فذكر من شرف العلم وفضل العلم والمتعلم والمُربِّى والمُعَلِّم، وقرن الدين بالعلم حتى كانت له دولة ونَفَاق، وأصبح كل مسجد وكل بيت من بيوت المسلمين مدرسة، وأصبح كل مسلم متعلما لنفسه، معلما لغيره، ووجد أكبر دافع إلى طلب العلم وهو الدين.

وضعه على المحكمة المقفلة فأصبح كل عالم قاضيا عادلاً وكل حاكم مسلم حكمًا مقسطًا، وأصبح المسلمون قوَّامين لله شهداء بالقسط، ووُجِدَ الإيمان بالله وبيوم الدين فكثر العدل وقل الجدل، وفُقِدت شهادة الزور والحكم بالجور.

وضعه على الأسرة المقفلة وقد فشا فيها التطفيف بين الوالد وولده، والأخ وإخوته، والرجل وزوجته، وتعدى من الأسرة إلى المجتمع فظهر بين السيد وخادمه والرئيس والمرؤوس والكبير والصغير، كل يريد أن يأخذ ما له ولا يدفع ما عليه، وأصبحوا مطففين إذا اكتالوا على الناس يستوفون، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون، فغرس في الأسرة الإيمان وحذَّرها من عقاب الله، وقرأ عليها قول الله: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً** ﴾ [النساء: ١]، وَقَسَّم المسؤولية على الأسرة والمجتمع كله فقال: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»، وهكذا أوجد أسرة عادلة متحابة مستقيمة ومجتمعا عادلاً، وأوجد في أعضائه شعوراً عميقًا بالأمانة وخوفًا شديداً من الآخرة حتى توَّرع الأمراء وولاة الأمور، وتقشَّفوا، وأصبح سيد القوم خادمهم، ووالى الأمة كولي اليتيم: إن استغنى استعفَّ وإن افتقر أكل بالمعروف، وأقبل إلى الأغنياء والتجار فزهدهم في الدنيا ورغبهم في الآخرة وأضاف الأموال إلى الله فقرأ عليهم: ﴿ **وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ** ﴾ [الحديد: ٧]، ﴿ **وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ** ﴾ [النور: ٣٣]، ﴿ **وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ** ﴾

[التوبة: ٣٤ – ٣٥]

أبرز رسول الله ﷺ برسالته ودعوته الفرد الصالح المؤمن بالله، الخائف من عقاب الله، الخاشع الأمين، المؤثر للآخرة على الدنيا، المستهين بالمادة المتغلب عليها بإيمانه وقوته الروحية، يؤمن بأن الدنيا خُلقَت له وأنه خُلقَ للآخرة، فإذا كان هذا الفرد تاجراً فهو التاجر الصدوق الأمين، وإذا كان فقيراً فهو الرجل الشريف الكادح، وإذا كان عاملاً فهو العامل المجتهد الناصح، وإذا كان غنيًّا فهو الغني السخي المواسي، وإذا كان قاضيًا فهو القاضي العادل الفهم، وإذا كان واليًا فهو الوالي المخلص

الأمين، وإذا كان سيداً رئيساً فهو الرئيس المتواضع الرحيم، وإذا كان خادماً أو أجيراً فهو الرجل القوى الأمين، وإذا كان أميناً للأموال العامة فهو الخازن الحفيظ العليم. وعلى هذه اللَّبنات قام المجتمع الإسلامى وتأسست الحكومة الإسلامية فيه بدورها، ولم يكن المجتمع والحكومة بطبيعة الحال إلا صورة مُكَبَّرة لأخلاق الأفراد ونفسيتهم، فكان المجتمع مجتمعاً صالحاً أميناً مؤثراً للآخرة على الدنيا متغلباً على المادة غير محكوم لها، انتقل إليه صدق التاجر وأمانته، وتعفف الفقير وكدحه، واجتهاد العامل ونصحه، وسخاوة الغنى ومواساته، وعدل القاضى وحكمته، وإخلاص الوالى وأمانته، وتواضع الرئيس ورحمته، وقوة الخادم، وحراسة الخازن، وكانت هذه الحكومة حكومة راشدة ومؤثرة للمبادئ على المنافع، الهداية على الجباية، وبتأثير هذا المجتمع وبنفوذ هذه الحكومة وُجِدت حياة عامة، كلها إيمان وعمل صالح، وصدق وإخلاص، وجد واجتهاد، وعدل فى الأخذ والعطاء، وإنصاف النفس مع الغير.

وقد ذهلتُ فى حديثى لنفسى، وتمثلت إلىَّ الجماعات الإسلامية الأولى بجملها وتفاصيلها كأنى أشاهدها وأتنفسُ فى جوِّها وانقطعت الصلة بينى وبين العالَم المعاصِر.

وحانت منى التفاتة إلى هذا العصر الذى نعيش فيه فقلت: إنى لأرى أقفالاً جديدة على أبواب الحياة الإنسانية وقد قطعت الحياة مراحل طويلة وخطت خطوات واسعة وتعقدت الحياة والتوت وتطوَّرت المسائل وتنوَّعت، وتساءلتُ: هل يمكن فتح هذه الأقفال الجديدة بذلك المفتاح العتيق؟ وأبيتُ أن أحكم بشىء، هل أختبر هذه الأقفال وأضع عليها المفتاح، ولمستُ هذه الأقفال بالبنان فإذا هى الأقفال القديمة بتلوين جديد، وإذا المشاكل نفس مشاكل العصر القديم، وإذا المشكلة الكبرى وأساس الأزمة هو الفرد الذى لا يزال لبنة المجتمع وأساس الحكومة، ووجدتُ أن هذا الفرد قد أصبح اليوم لا يؤمن إلا بالمادة والقوة، ولا يعنى إلا بذاته وشهواته وأنه يُبالغ فى تقدير هذه الحياة ويُسرف فى عبادة الذات وإرضاء الشهوات، وقد انقطعت الصلة بينه وبين ربه ورسالة الأنبياء وعقيدة الآخرة، فكان

هذا الفرد هو مصدر شقاء هذه المدنية، فإذا كان تاجراً فهو التاجر المحتكر النهم الذى يحجب السلع أيام رخصها ويُبرزها عند غلائها ويُسبِّب المجاعات والأزمات، وإذا كان فقيراً فهو الفقير الثائر الذى يريد أن يتغلب على جهود الآخرين بغير تعب، وإذا كان عاملاً فهو العامل المطفف الذى يريد أن يأخذ ما له ولا يدفع ما عليه، وإذا كان غنيًّا فهو الغنى الشحيح القاسى الذى لا رحمة فيه ولا عطف، وإذا كان والياً فهو الوالى الغاش الناهب للأموال، وإذا كان سيداً فهو الرجل المستبد المستأثر الذى لا ينظر إلا إلى فائدته وراحته، وإذا كان خادمًا فهو الضعيف الخائن، وإذا كان خازنًا فهو السارق المختلس للأموال، وإذا كان وزير دولة أو رئيس وزارة أو رئيس جمهورية فهو المادى المستأثر الذى لا يخدم إلا نفسه وحزبه ولا يعرف غيره. وإذا كان زعيمًا أو قائداً فهو الوطنى أو الجنسى الذى يقدس وطنه ويعبد عنصره ويدوس كرامة البلاد الأخرى والشعوب الأخرى، وإذا كان مُشرِّعًا فهو الذى يسن القوانين الجائرة والضرائب الفادحة، وإذا كان مخترعًا اخترع المدمرات والناسفات، وإذا كان مكتشفًا اكتشف الغازات المُبيدة للشعوب، المُخرِّبة للبلاد، والقنبلة الذَرِّية التى تُهلك الحرث والنسل، وإذا كان فيه قوة التطبيق والتنفيذ لم ير بأسًا بإلقاء القنابل على الأمم والبلاد.

وبهؤلاء الأفراد تكوَّن المجتمع وتأسست الحكومة، فكان مجتمعًا ماديًّا، اجتمع فيه احتكار التاجر وثورة الفقير وتطفيف العامل وشُح الغنى وغش الوالى، واستبداد السيد وخيانة الخادم وسرقة الخازن ونفعية الوزراء ووطنية الزعماء [1] وإجحاف المُشرِّع وإسراف المخترع والمكتشف وقسوة المُنَفِّذ، وبهذه النفسيات المادية تولَّدت أزمات عنيفة ومشاكل معقدة، تشكو منها الإنسانية بثها وحزنها، كالسوق السوداء وفشو الرشوة والغلاء الفاحش واختفاء الأشياء والتضخم النقدى، وأصبح المفكرون والمُشرِّعون لا يجدون حلاً لهذه المشاكل، وأصبحوا إذا خرجوا من أزمة واجهوا أزمة أخرى، بل إن حلولهم القاصرة ومعالجتهم المؤقتة هى التى

---

(١) يقصد الكاتب بـ «الوطنية» النزعة الإقليمية التى كل ولائها لأرضها فحسب دون اعتبار للروابط الأخرى، دينية أو إنسانية.

تُسبب أزمات جديدة، وتنقلوا من حكومة شخصية إلى ديمقراطية إلى ديكتاتورية ثم إلى ديمقراطية، ومن نظام رأسمالى إلى نظام اشتراكى إلى شيوعى، وإذا الوضع لا يتغيَّر لأن الفرد الذى هو الأساس لا يتغيَّر، ويجهلون، أو يتجاهلون. فى كل ذلك، أن الفرد هو الفاسد المعوج، ولو عرفوا أن الفرد هو الأساس وأنه فاسد معوج لما استطاعوا إصلاحه وتقويمه لأنهم على كثرة مؤسساتهم العلمية ودور التعليم التربية والنشر، لايملكون ما يُصلحون به الفرد، ويُقوِّمون اعوجاجه، ويُحوِّلون اتجاهه من الشر إلى الخير، ومن الهدم إلى البناء، لأنهم أفلسوا فى الروح، وتخلُّوا عن الإيمان، وفقدوا كل ما يُغذِّى القلب ويغرس الإيمان، ويُعيد الصلة بين العبد وربه، وبين هذه الحياة والحياة الأخرى، وبين المادة والروح، وبين العلم والأخلاق، وفى الأخير أدى بهم إفلاسهم الروحى وماديتهم العمياء واستكبارهم إلى استعمال آخر ما عندهم من آلات التدمير التى تبيد شعبًا بأسره وتُخرِّب قُطرًا بطوله، حتى استهدفت الحضارة والحياة البشرية – إذا تبادلت الدول المتحاربة استعمال هذه الآلات – للنهاية الأليمة ». اهـ.

إننا لا ننكر أهمية المجتمع الصالح، بل ضرورته لتنشئة الفرد الصالح، ولكن المجتمع إن هو – فى الواقع – إلا بناء لبناته الأفراد، فإذا لم تصلح اللَّبنات فى نفسها لم يُتصور أن يقوم عليها بُنيان سليم.

لبنات المجتمع هى أنا وأنت وهو وهى، فإذا صلحت أنفسنا صلح المجتمع كله، ومفتاح هذا الصلاح النفسى والخُلُقى شىء واحد هو الإيمان.

* * *